اللغة الأولى التي تكلمها الإنسان

الإنسان الأول هو آدم عليه السلام ، وقد ثبت بالنص القرآن ما يفيد أن آدم عليه السلام كان يتكلم ويخاطب غيره ، قبل النزول إلى الأرض وبعد النزول إليها ، فالإنسان منذ الخلق الأول له قدرة على الكلام ، وقد زوده الله تعالى بأعضاء صوتية أو جهاز صوتي يؤلف به كلاما أو أصواتا يتواصل بها مع أبناء جنسه ، ولكن النص القرآني لم يشر إلى اللغة التي تكلمها آدم ، ولم يأت فيه وصف لها أو إشارة تفيد شيئا محددا أو تذكر لغة بعينها تكلم بها الجيل الأول ، ولم يرد شيء في ذلك في العهد القديم ، وقد جاء ذكر أسماء بعض اللغات في مرويات تعددت روايتها ، ولا يؤتمن صحة بعضها ، وقد رد العلماء بعضها ، ولكن من المؤكد أن اللغة التي تكلم بها آدم كانت ذات طبيعة صوتية ، ولا نرتاح إلى الآراء التي تذهب إلى أن البشر كانوا يتواصلون بالإشارة أو الحركات دون لغة أو أصوات ، فهذا الرأي متأثر بنظرية حيوانية الإنسان وتطوره فالخطاب القرآن نسب إلى آدم القول[1] ، ولم ينسب إليه الإشارة أو الحركة التي تواصل بها زكريا عليه السلام مع قومه ، وتواصلت بها مريم عليها

---

(1) ارجع إلى الآيات:33 من البقرة: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ أي ذكرهالهم أو قالها . وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِ ﴾ [البقرة: 37] قيل هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: 23] .

السلام مع قومها[1].

وقد ادعت أمم كثيرة أن اللسان الأول كان لسانها ، فقد زعم اليهود أن لسان آدم العبرية ، وزعم الآرميون أنه تكلم لسانهم ، وقيل غير ذلك ، وقد ذهب بعض المسلمين وهم قلة – إلى أن لسانه كان السريانية ، وذهب كثير منهم إلى أن لسان آدم كان العربية لغة القرآن الكريم ، وزاد بعضهم أكثر من ذلك أنها لسان الله عز وجل مع خلقه ، ولسان أهل الجنة .

وهي بذلك أم اللغات المعاصرة ، ولسنا على رأي من هذه الآراء لعدم ثقتنا بما قدموه من أدلة واهية والأدلة العقلية التي قدمها هؤلاء لا تقيم حقيقة ، وأدلتهم النقلية لا تسلم من الوضع أو الضعف . أخرج ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن آدم –عليه السلام– كانت لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية .

وقال عبد الملك بن حبيب: «كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربيًا ، إلى أن بعد العهد وطال ، حُرّف وصار سريانيا ، وهو منسوب إلى أرض سوري أو سوريانة ، وهي أرض الجزيرة ، بها كان نوح عليه السلام ، وقومه قبل الغرق . قال: وكان يشاكل اللسان العربي ، إلا أنه محرف ،وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح ، إلا أن رجلا واحدا يقال له جُرْهم كان لسانه بلسان العربي الأول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته ، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عَوْص أبي عاد وعَبيل وجائر أبي ثمود وجديس ، وسُمّيت عاد باسم جرهم؛ لأنه كان جدهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرْفَخْشذ بن سام ، فنزل هناك بنو إسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[2].

---

(1) الآيات: 41 آل عمران ، و10، 11 ، مريم ، 26 ، 30 مريم ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ [مريم: 26] ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ [مريم: 29] . وارجع إلى الدلالة اللفظية ، الدكتور محمود عكاشة ، مكتبة الأنجلو ص11 ، 12 .

(2) المزهر جـ 1/ 30 .

وجاء في بعض الأخبار أن أول من تكلم العربية ، يعرب بن قحطان ، لأنه أول من انعدل لسانه من السريانية إلى العربية . وهذا معنى قول الجوهري في الصحاح: «أول من تكلم العربية يعرب بن قحطان»[1].

ويقال إن إرم بن سام تزوج من بنات جرهم أحد الذين كانوا في السفينة ، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوض أبي عاد ، وعبيل وجائر أبي ثمود وجديس ، وسميت عاد باسم جرهم؛ لأنه كان جدهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام إلى أن وصل إلى يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو إسماعيل فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[2].

وأخرج ابن عساكر في التاريخ بسند رواه عن أنس بن مالك موقوفًا قال: لما حشر الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحا ، فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له ، فنادي مناد: من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره ، واقتصد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء فقام يعرب بن قحطان ، فقيل له يعرب بن قحطان بن هود ، أنت هوفكان أول من تكلم بالعربية المبينة فلم يزل المنادي ينادي من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لسانا ، وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن ، فسميت بابل وكان اللسان يومئذ بابليا[3].وقد جاء في العهد أن اختلاف الألسنة وقع في أرض بابل[4].

ونسبت للنبي ﷺ أحاديث في هذا الموضوع استدل بها القدماء وبعض المحدثين الذي يتبنون آراءهم ، ومن هذه المرويات ، ما رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما بطرق مختلفة ، قال رسول الله ﷺ: «أحبوا العرب لثلاث ،

---

(1) المزهر جـ 1/ 31 .

(2) نفسه 1/ 31 .

(3) المزهر 1/ 32 .

(4) سفر التكوين .

لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة في الجنة عربي» [1] . واستدلوا بهذا على أن آدم قد نطق بالعربية ، وتكلم بها بعد ما هبط إلى الأرض ، ولقنها لبنيه من بعد ، والله أعلم.

وسلم هؤلاء بما ورد في العهد القديم من تقسيم السلالات البشرية إلى ثلاثة أقسام أو فروع يمتد نسبهم إلى سام ، وحام ، ويافث أولاد نوح عليه السلام ، «وإذا كان سام بن نوح هو أبو العرب ، فمن باب أولى أن يكون نوح أبا العرب أيضا . وقد علم العربية لابنيه الآخرين حام ويافث ، وما تخصيص سام بأبوة العرب إلا بمعنى ثبات أكثر فروعه على اللسان العربي بعكس غالبية الفروع في حام ويافث التي تأثرت بالبيئات الجديدة ، وابتعدت عن مرحلة اللغة الأم ،فتطورت كلمات ، وتكونت لهجات ، ثم تعاقبت لغات على درب البشرية الطويل ، ويوضح هذا المعنى أكثر فأكثر حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه «ليست العربية لأحدكم من أم ولا أب ، ولكن العربية هي هذا اللسان فمن نطق العربية فهو عربي» [2] .

وخلص أصحاب هذا الرأي إلى أن «العربية أم اللغات وأصلها الأصيل ، وكل اللغات الآرية والسامية والحامية كان أصلها لهجات عربية تولدت عنها وتطورت فيما بعد بحسب البيئات والحاجيات ثم تعمقت كلغات مستقلة على مر العصور» [3] .

وقد تقدم أحد الباحثين إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ببحث يحمل عنوان «العربية لسان الله تعالى نزل بها آدم عليه السلام» ، ومن غريب ما تقدم به في بحثه أنه قدم أدلة على

---

(1) ذكر السيوطي هذا الحديث في الجامع الكبير رقم 50/ 634 من رواية العقيلي في الضعفاء ، والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس. قال الذهبي في مختصر المستدرك: أظنه موضوعًا . وقال العقيلي في الضعفاء منكر لا أصل له ، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات. قال الحفني: هذا الحديث وإن كان معناه صحيحا ، فأكثر المحدثين على أنه موضوع . وقيل: ضعيف . جاء ذلك في هامش الجامع الكبير للسيوطي . وهامش تفسير القرطبي جـ1/ 38 وقد ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره .

(2) مجلة اللسان العربي . المغرب . م7جـ 1/ 190 من بحث أعده الأستاذ خليل عبد الله عن نشأة اللغة في المجتمع .

(3) مجلة اللسان م7 جـ 1/ 190 .

أنها لسان الله تعالى منها:

1- أسماء الله الحسنى التي وردت في سورة الحشر في الآيات: 22 ، 23 ، 24 باللغة العربية ، وليس فيها أعجمى ، ولهذا فهي لسان الله تعالى ، ولسان خلقه .

2- لغة الحوار بين الله تعالى وملائكته حول خلق آدم هي العربية ، وكذلك لغة الحوار بينه سبحانه وبين آدم ، وكذلك مع إبليس ، وذهب أبعد من ذلك عندما قال إنها أحاديث الأنبياء مع أقوامهم ، ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم كانت بلسان عربي مبين ، وحجته في ذلك ما ذكره أولا وسلم بصحته أن العربية لسان الله تعالى . ثم احتج بقول منسوب إلى النبي ﷺ : «تعلموا العربية ، وعلموها الناس ، فإنها لسان الله يوم القيامة».

3- تأويل الباحث بعض أسماء الأنبياء الأعاجم بالعربية ، وادعى أنه يؤصل أسماء عدد من الأنبياء والرسل الأولين وبعض أبناء آدم في العربية ، واستشهد الباحث في دعواه بما جاء في معجم لسان العرب من ذكر أسماء الأنبياء التي اجتهد ابن منظور في توجيهها على اللفظ العربي ، ومن يتفحص توجيهات ابن منظور وغيره من علماء العربية ، يجد أنهم بحثوا معاني هذه الأسماء في ضوء مادة تشبهها في العربية ، ولا يقطعون بحقيقة هذا التوجيه ، فهم يرونه اجتهادا لعدم ثقتهم في صحة أنها عربية الأصل ، وعلة بحثها أنها عربت واستخدمت في العربية ، وقد شرح ابن منظور مشتقات مادة أدم ، أدم بمعنى سمر ، «والأدمة السمرة التي تعلوا البشرة وغيرها مما يقرب من لون أديم الأرض» ويعقب الباحث على رأي ابن منظور قائلا: «إن هذا اشتقاق عربي لا غبار علي ولا لبس فيه» .

وعلماء اللغة لم يزعموا في معجمهم أن آدم وغيره من أسماء الأعاجم عربية الأصل ، لكنهم أشاروا إلى تلك الأعلام في كل مادة يمكن أن تدخل تحتها .

ونقل الباحث عن ابن منظور معنى «حواء» وهي صفة المرأة ، والمرأة الحواء هي ذات الشفتين السمراوين أو الخضراوين أو الحمراوين الضاربتين إلى السواد . وقال في معنى «شيث» : وأما «شيث» عليه السلام ، فإن القاموس يشير إلى أن الشية هي البقعة البيضاء تتوسط الجلد الذي يصطبغ بلون مغاير» . ولم يذكر صاحب اللسان شيئا عن معنى شيث . وقال في هابيل وقابيل: «وأما هابيل عليه السلام: فلعله مما درج عليه قولهم: «اهتبل الصيد

بمعنى بغاه وتكسبه ، ويقال الهابل بمعنى الكاسب ، الهبل: الرجل العظيم ، وقيل الطويل . والهابل الكثير الشحم واللحم . وهبل اسم رجل معدول عن (هابل)، وهو معرفة (أي علم) وبنو هبيل بطن العرب .

وأما قابيل: فمعناه الكفيل والعريف ومعناه الجماعة «تزكية له وتفاؤلا بأن تكون له قوة الجماعة والقبول ، وقبيل بمعنى مقبول ومعناه المستقبل ، ومعناه الارتجال في الخطابة إلى غير ذلك مما تفيده الكلمة من معان لا داعي لسردها اتقاء الإطالة» . وهابيل وقابيل أعجميان ولا يحتملان هذين المعنيين . وقال في إدريس: «وبالنسبة لنبي الله إدريس عليه السلام فقد أورد لسان العرب بالنص: «ويقال سمي إدريس عليه السلام لكثرة دراسته كتاب الله تعالى؟...» ودرس الحِنطة أي فصلها عن سنابلها ، ودرس الناقة أي راضها ، ودرس الكتاب ، والمدارسة المذاكرة أو التعلم .

وأما بالنسبة لرسول الله نوح عليه الصلاة والسلام ، فيقول اللسان: النوحة ، القوة وهي النيحة أيضًا ، وتنوح الشيء تنوحا إذا تحرك وهو متدل ، ونوح اسم نبي معروف وقومه بنو راسب (كما ورد في البداية والنهاية لابن كثير نقلا عن ابن جبير وغيره)، ولم يقل صاحب اللسان أن نوحا عربي ولم يقل شيئًا في معناه ، واسم نوح يشبه مصدر ناح نوحا .

واستدل الباحث من معاني بعض الأسماء التي تأوّلها في العربية على أن الأجناس البشرية تعاقبت من أصل عربي قال: «وأما ما يخص أبناء نوح عليه السلام: سام وحام ويافث فإنه وإن كانت صلة الاسمين الأولين بالعربية واضحة بما لا يتطلب مزيدا من الإيضاح فبالنسبة ليافث يكفي أن نورد عبارة لسان العرب بنصها: «يافث من أبناء نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقيل هو من نسله الترك ويأجوج ومأجوج وهم إخوة بني سام وحام فيما زعم النسابون ، وأيافث موضع باليمن كأنهم جعلوا كل جزء منه (أيفث) اسما لا صفة .

وفي عبارته حول اتصاله بنسله من الترك أو يأجوج ومأجوج تأكيد لحقيقة أن كل الأجناس التي تعاقبت هي ذات انتماء للعرق العربي الذي تفرد منذ آدم . أما بالنسبة لرسول الله هود عليه الصلاة والسلام ، فيرى أنه من هاد يهود هودا أو تهودا بمعنى ناب أو أناب .

وهو اشتقاق عربي لا لبس فيه وفيه دليل على أن اسم يهود يرجع إلى العربية التي كان ينتمي إليها هود وقومه (عاد) وهم من العرب البائدة ، وهذا يؤكد الأصل العربي لليهود حسب رأيه .

وأما عاد الأولى: فهم قوم هود من العرب البائدة ،قال اللسان: « هم قوم هود عليه السلام ، وقال الليث: وعاد الأولى هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح عليه السلام (أهلكهم الله) ، وأما عاد الأخيرة فهم بنو تميم بنزوان رمال عالج عصوا الله فمسخوا لكل إنسان منهم يد ورجل من شق» .

وأما ثمود فيقول لسان العرب: «وثمود قبيلة من العرب الأول يصرف ولا يصرف ، ويقال إنهم من بقية عاد ، وهم قوم صالح على نبينا وعليه الصلاة والسلام بعثه الله إليهم وهو نبي عربي واختلف القراء في إعرابه في كتاب الله عز وجل ، فمنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه ، فمن صرفه ذهب به إلى الحق ، لأنه اسم عربي مذكر ، ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهي مؤنثة .

وتوصل الباحث من ذلك إلى النتيجة التالية: «وإذا راعينا قوم عاد وثمود يمثلان الانتشار الأول للبشرية بعد الطوفان وأن نوحا وبنيه وقومه إنما كانوا عربا ، فإن هذا يقودنا بإقناع واقتناع إلى حقيقة أن الأجيال التي تعاقبت كانت عربية ، فقد كانوا امتداد لبقايا عاد وثمود من العرب ، وأن الدماء التي سرت في جسد إبراهيم عليه السلام وبنيه إنما هي دماء عربية ، وأن العبرية التي جاءت (على أصح الآراء) من عبوره عليه السلام لنهر دجلة إلى فلسطين ، لا تغيّر شيئا من حقيقة دمه العربي الذي كان دما أَهَّلَه ؛ لأن ينسبنا إليه في قوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: 78] . ومن هنا نعبر بسلام إلى الحقيقة الكبرى ، وهي أن العرب هم الأصل الأصيل للبشرية كلها وأنه لا مجال للقول بتعدد الأعراق والانتماءات إلا من خلال مفتريات التاريخ وتجاهل هذه الحقيقة الكبرى التي نأمل أن تتكاتف جهود الأبرار من البشر لتأكيدها حفاظا على وحدة الأسرة الإنسانية على النحو الذي أعلنه الله في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

﴿ تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: 1] واستدل بحجة أخرى هي أن القرآن الكريم بلسان عربي ، وأن الكتب السماوية الأخرى بألسنة متعددة ، وتعرضت للتغير والتبديل ، فهي محل شك وبعضها فقد ، واسترسل الباحث في أدلة أخرى ، وقد اكتفينا بما سبق ؛ لأنه أشهر ما تردد في هذا الموضوع .

وقد عمدت إلى ذكر بعض قضايا هذا البحث ، لأنها ترددت في بعض كتب القدماء ، وأخذ بها كثير من الباحثين المحدثين الذين جرفهم حبهم لدينهم ولغتهم إلى تبني هذا الرأي ، ومن الحب ما أضل ، فما ذكره الباحث لا حاجة بنا إلى تقصيه في الرد عليه ، ونوجز الجواب فيه على النحو التالي:

لا يصح بحال من الأحوال أن ننسب إلى الله لغة أو لسان معينا ، فندعي باطلا أن الله تعالى يتكلم لغة كذا ، لأنه تعالى أقدر وأعظم من هذا ، فاللغات شأننا وحدنا ، وليس من العلم أن نناقش أمرا يتعلق بالذات الإلهية يتخطى إدراكنا مما لا علم لنا به فهو سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء) .

ما ذكره الباحث عن حديث الله تعالى مع آدم ، وملائكته ، وإبليس مما يتجاوز العلم ، ولا نخوض فيه لعدم ثبوت نص فيه ، وهذا الخطاب المنسوب إلى الله تعالى مع خلقه هو وحده أعلم به وأقدر عليه ، وليس لدينا دليل فيه ، أما ما ذكره الباحث من أن لسان الأنبياء مع أقوامهم كان عربيًا ، فهذا باطل باطل ، لثبوت نص صريح فيه ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: 4] وما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه : «لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه» . وهذا الرأي يتعارض مع ما توصل إليه العلم من اختلاف الألسنة ، واختلاف لغات الكتب السماوية ، وهذا لا يختلف فيه علماؤنا قديما أو حديثا .

لم يجمع علماء العربية على عربية أسماء الأنبياء ، وما لا شك فيه أن ما دون الأنبياء الخمسة العرب: صالح ، شعيب ، هود ، وإسماعيل ومحمد ﷺ ، ليسوا بعرب . قد ذكرت بعض المعاجم اسم «آدم: أبو البشر» واكتفوا بذلك. وقال الفيروز آبادي «نوح أعجمي

منصرف لخفته»[1]. وآدم غير منصرف ، لأنه أعجمي ، وليس له ما يبرر تصرفه في العربية. وقال في إدريس: «وإدريس النبي ﷺ ليس من الدراسة كماتوهمه كثيرون ، لأنه أعجمي ، واسمه خنوخ أو أخنوخ»[2] وقال في إبراهيم:

«وإبراهيم وإبراهام وإبراهوم ، وإبراهم وإبرهم بفتح الهاء بلا ألف اسم أعجمي[3]. وهو في العهد القديم إبرام[4] وقال ابن خالويه في: إبراهيم النبي عليه السلام ، ومن العرب من يقول إبراهام ، وكذلك قرأ ابن عامر . وذلك أن إبراهيم اسم أعجمي ، فإذاعربته العرب ، فإنها تخالف بين ألفاظه ، ومنهم من يقول إبرهم بغير ألف[5] ، وفي هذا غناء عن تتبع أسماء الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم دون الخمسة الذين ذكرناهم ،بيد أننا نود أن نؤكد أن اسم إسماعيل – من بين الأنبياء العرب الخمسة: صالح ، شعيب ، هود ، إسماعيل ، محمد عليهم السلام ، ليس اسما عربيا ، قيل إن أصله شمع إيل بمعنى سميع الرب أو مجيب الرب ، فإيل اسم الله تعالى في العبرية .

وقد اعتمد الباحث على إسرائيليات في توثيق رأيه وتأكيده ، كما اعتمد على أخبار ضعيفة رواهابعض القدماء ولا ترقى إلى الصحة ، وما زعمه أن العرب هم أصل الأجناس البشرية ليس له دليل صادق ، ولا تقبله الدراسات الإنسانية التي ترفض فكرة نقاء الجنس وتقسيم البشر إلى سلالات نقية على ما جاء في العهد القديم ، وما لا يقره العقل مما لم يرد فيه نص ، لا يقره الإسلام ، هذا قولنا وفوق كل ذي علم عليم والله أعلم .

وقد ذكر الإمام ابن حزم أوجه الخلاف في اللغة التي تكلمها آدم ، ولم يرجح قولا ، فقال: « وقد قال قوم هي السريانية . وقال قوم هي اليونانية .وقال قوم العبرانية . وقال قوم

---

(1) القاموس المحيط مادة نوح ص352 .

(2) نفسه مادة درس ص 312 .

(3) نفسه مادة برهم .

(4) سفر التكوين .

(5) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه . دار المنار ص4 .

هي العربية والله أعلم»[1]. ولكنه اكتشف وجود علاقة بين اللغة العربية والسريانية والعبرانية . وقد أكدت الدراسات الحديثة أن هذه اللغات تنتمي إلى أسرة واحدة مع لغات أخرى (الآشورية ، والأكادية ، والحبشية ، والأجريتية) ، وهذا يعني أن هذه اللغات فروع من لغة أقدم ، لم تحدد معالمهاكاملة ، ولكنهم أثبتوا أن اللغة العربية تتمتع بكثير من خصائص اللغات التي تنتمي إلى هذه الأسرة ، وتوصلوا من ذلك إلى أن اللغة العربية هي أقرب تلك اللغات إلى اللغة الأم ؛ لأنها احتفظت بكثير من خصائصها لعدم تأثرها بغيرها من اللغات فترة طويلة ، فقد عاشت معزولة عن الغزو الخارجي ، فكان ذلك سببا في احتفاظها بكثير من خصائص اللغة الأم .

وهذا ما دفع بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن اللغة العربية قد تكون هي الأم لهذا اللغات التي تنتمي إلى أسرتها ، وقد أصابها بعض التغيير تأثرا بعوامل التطور الزمني، ولكنهم لم يزعموا أنها اللغة الأولى ، أو أنها أصل للغات أخرى لا تنتمي للأسرة التي تنتمي إليها العربية ، والتي عرفت في الدراسات الحديثة تجاوزا باسم «اللغات السامية» وبقولهم إنها قد تكون اللغة الأم لأبناء أسرتها ترجيحًا وليست يقينًا ، ولكن ما عليه معظم الباحثين أنها فرع من هذه الأسرة ، وهي أقربهم إلى اللغة الأم ، فقد جمعت كثيرا من الخصائص التي تتمتع بها أخواتها الأخريات ، وهذه الخصائص تعد ركاما أو بقايا اللغة الأم التي احتفظت بها اللغة العربية ، ويبقى الجواب مجهولاً عن معرفة اللغة الأم التي تحدثها آدم، وتفرعت عنها اللغات العالمية .

وقد أكدت البحوث الحديثة التي قام بها المستشرقون ، وأخذ بها علماء العرب وسلموا بصحتها ، أن اللغة العربية فرع من فروع أسرة لغوية كبيرة (تعرف باللغات السامية بين العلماء) عاشت في منطقة الشرق الأوسط وامتدت منها إلى مناطق أخرى مجاورة ، ولم تتوصل البحوث الحديثة إلى شيء ذي جدوى مما جاء في كتب القدماء (مسلمين وغير

---

(1) الإمام علي بن حزم الأندلسي ، عاش ما بين 384هـ و456 هـ ، وقد ناقش هذا الموضوع في الباب الرابع كيفية ظهور اللغات عن توقيف أم عن اصطلاح في كتابة الأحكام في أصول الأحكام مكتبة الخانجي ، ط1/ 1345هـ ص31

مسلمين) في فترات زمنية مختلفة، من معرفة شيء عن اللغة الأولى التي تكلمها آدم ، ولم يسلم هؤلاء الباحثون بما جاء في العهد القديم (في سفر التكوين تحديدًا عن اللغة ، والحديث عن اختلاف الألسنة) ، ولم يسلموا كذلك بآراء القدماء من الهنود واليونانيين وغيرهم في تحديد لغة بعينها تكلم بها آدم والجيل الأول ، ولكنهم استطاعوا التوصل إلى تحديد معالم بعض اللغات القديمة التي وصلتهم نصوص أو نقوش منها تفيد في معرفة هذه اللغات المندثرة ، وتحديد الأسرة التي تنتمي إليها ، لكنهم لم يستطيعوا معرفة شيء عن اللغات التي لم تخلف آثارا وكذلك الأمم البائدة التي لم تبق لها باقية .

ويرى كثير من علماء اللغة المحدثين أن اكتشاف العلاقة بين اللغات البشرية ، وتقسيمها إلى أسر يرجع إلى العصر الحديث ، وينسبونه إلى العلماء الذين اكتشفوا العلاقة بين اللغة السنسكريتية (لغة الهند القديمة) واللغات الأوروبية . واكتشفوا كذلك وجود علاقة بين اللغة العربية والعبرية والآرامية والفينيقية والأكادية والحبشية وأطلقوا عليها اسم اللغات السامية .

ولكننا نجد في تراثنا العربي الإسلامي من اكتشف وجود علاقة بين اللغة العربية والعبرية والسريانية ، وأكد على وجود أصل واحد تفرعت عنه هذه اللغات ، وقد توصل إلى هذا الكشف العظيم الإمام علي بن حزم الأندلسي الظاهري الذي عاش ما بين سنة 384هـ إلى 456هـ ، وقد قال ذلك في ثنايا حديثه في الباب الرابع «في كيفية ظهور اللغات أعن توقيف أ عن اصطلاح؟» والحديث عن اللغة التي تحدث بها آدم عليه السلام ، أو اللغة الأم التي تفرعت عنها اللغات العالمية ، «وقد قال قوم: هي السريانية . وقال قوم: هي اليونانية.، وقال قوم هي: العبرانية. وقال قوم: هي العبرية . والله أعلم»[1] .

وابن حزم لم يأخذ بواحد من تلك الأقوال ، وأرجأ الأمر إلى علم الله تعالى ، لعدم ثبوت الأدلة لديه ، لكنه استطاع من خلال معرفته بما تيسر له من معرفة لغوية من وجود

---

(1) أبو محمد علي بن حزم الأندلسي: الأحكام في أصول الأحكام مكتبة الخانجي ط 1/ 1345هـ ص31. واكتشف أبو حسن الأندلسي أن اللغة الحبشية لها صلة قرابة باللغة العربية ، وكتب في ذلك كتابا ، وفقد هذا الكتاب ، وقد أشار إليه في تفسيره البحر المحيط جـ 4/ 162 ، 163 مطبعة السعادة .

علاقة بين بعض اللغات ، وهذا الرأي نابع من معرفته بها ،فقد قال: «إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش[1].

والجرش الحك ، ويريد احتكاك اللغات بعضها ببعض ، ويمثل لذلك: «كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروان إذا رام نغمة الأندلسي ، ومن الخرساني إذا رام نغمتها . ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط ، وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى يتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا ، وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فنجدهم يقولون: في العنب العينب ، وفي السوط أسطوط، وفي ثلاثة دنانير ثلثدا . وإذا تعرب البربري ، فأراد أن يقول الشجرة قال: السجرة. وإذا تعرب الحليقي أبدل من العين والحاء هاء ، فيقول «مهمدا» إذا أراد محمدا . ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافهما إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبدل ألفاظ الناس على طول الأزمان . واختلاف البلدان ومجاورة الأمم . وأنها لغة واحدة».

ويتبين لنا أن ابن حزم يرى أن هذه اللغات العربية والعبرية والسريانية ترجع إلى أصل واحد تفرعت عنه ، كما يتبين أيضا مما ذكره من أمثلة أن هذه اللغات كانت في الأصل عبارة عن لهجات تنتمي إلى لغة واحدة ، ولكن بمرور الزمن زادت الشقة بينهن وبين اللغة الأم، واتسع البون بينها فاستقلت كل لغة عن الأخرى ، وحملت اسما مغايرا الأخرى .

وهذا هو رأينا في نشأة اللغات العالمية جميعا ، كان الناس أمة واحدة على لسان واحد هو لسان آدم عليه السلام ، فافترقوا ، فحدثت المرحلة الأولى من انشقاق اللغة ، وهي التمايز اللهجي ، الذي يأتي من انقسام الجماعات البشرية ، وتأثرها بالمحيط الخارجي وتطورها الاجتماعي . ثم تتحول اللهجة بمرور الوقت إلى لغة تباين اللهجات الأخرى التي

---

(1) الأحكام في أصول الأحكام ص31 ، 32 واكتشف أئمة آخرون وجود قرابة بين العربية وأخواتها الساميات منهم: أبو حاتم الرازي ، والسهيلي ، وأبو حيان الأندلسي والسيوطي وغيرهم .

تحولت هي الأخرى إلى لغات ، ولعل أشد العوامل في الانشقاق اللغوي هو فقدان التواصل المستمر بين أهل اللغة الواحدة في زمن مبكر من حياة البشرية ، وهذه النتيجة سبق إليها عالمنا المسلم الفقيه ابن حزم ، ولكنه أخفق عندما جعل اللغة السريانية أصلا للعربية والعبرية ، «وإذا قد تيقنا ذلك فالسريانية أصل العربية والعبرانية معًا»[1] . وهو ما لم يثبته العلم الحديث ، الذي يرى أن تلك اللغات الثلاث ترجع إلى لغة واحدة أو أسرة واحدة سموها «اللغات السامية» .

وابن حزم معذور في قوله هذا ؛ لأن وسائل البحث الحديث لم تكن متوافرة لديه ،فقد توصل العلماء المحدثين إلى ذلك من خلال ما اكتشفوه من آثار مدونًا عليها نصوص من تلك اللغات ، فقارنوا بينها ، وأعانهم على ذلك وسائل البحث الحديث ومناهجه ، كما أنهم أثبتوا أن اللغة العربية تعد أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأم لما احتفظت به من خصائص لغوية وكلمات ، توجد بين تلك اللغات ، ولكن لا تتميز بها جميعا لغة منهن .

ويكشف ابن حزم عن المصدر الذي جعله يعتقد بأن السريانية هي الأصل ، وليس بمصدر لغوي وإنما هو تاريخي ، فقد اعتمد على ما ورد في الكتب السابقة من أخبار ، فدليل ابن حزم على ما يقول أن اللغة السريانية هي لغة إبراهيم عليه السلام وإبراهيم والد إسماعيل عليه السلام الذي تحدث العربية هو وبنوه ، ووالد إسحاق الذي تحدث العبرية هو وبنوه . والمعروف يقينا أن السريانية لهجة من لهجات الآرامية التي استطاعت أن تبسط نفوذها على الأكادية في العراق والأجريتية والعبرية في الشام ، فقد تغلبت على أخواتها في الشمال ، وصارت اللغة الرسمية في الدولة الفارسية والمشتركة ، والرأي الذي يقول إنها لغة إبراهيم يتوقف على معرفة المكان الذي كان يعيش فيه ولغته المستخدمة ، والفترة الزمنية كما استطاع ابن حزم أن يدرك عوامل انتشار اللغة وصراع اللغات بموت بعضها وغلبة الأخرى عليها .

وقد ناقش قضية نشأة اللغات الثلاث ، فقال: «والمستفيض أن أول من تكلم بهذه العربية إسماعيل عليه السلام ، فهي لغة ولده . والعبرانية لغة إسحق ولغة ولده . والسريانية

---

(1) الأحكام ص32 .

بلا شك هي كانت لغة إبراهيم ﷺ وعلى نبينا، وبنقل الاستفاضة الموجبة لصحة العلم ، فالسريانية أصل لها ، وناقش قضية انتشار اللغة وانحصارها ، وقد قال قوم: إن اليونانية أبسط اللغات ، ولعل هذا إنما هو الآن ، فإن الله يسقط أكثرها ويبطل سقوط دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليه في مساكنهم ، أو بنقلهم عند ديارهم واختلاطهم بغيرهم . فإنما قيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . وأما من تلف دولتهم ، وغلب عليه عددهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم . فمضمون منهم موت الخواطر. وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم . ونسيان أنسابهم وأخبارهم ، وبيود علومهم . هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة ولدولة السريانيين منذ ذهبت وسارت آلاف من الأعوام في أقل منها ينسى جميع اللغة ، فكيف تفلت أكثرها ، والله تعالى أعلم؟»[1].

ولم يذهب ابن حزم مذهب من قطعوا باسم اللغة التي تحدث بها آدم وأرجأ هذا إلى علم الله تعالى ، يقول عن اللغة السريانية التي رأها أصل العربية والعبرية: «ولسنا نقطع على أنها اللغة التي وقف الله تعالى عليها أولاً ، ولا ندري لعل قائلا يقول: لعل تلك اللغة [التي تحدث بها آدم أو التي وقفه الله عليها] قد درست البتة ، وذهبت بالجملة أو لعلها إحدى اللغات الباقية لا نعلمها بعينها ، وهذا هو الذي توجبه الضرورة ولابد مما لا يمكن سواه أصلا . وقد يمكن أن يكون الله تعالى وقف آدم -عليه السلام- على جميع اللغات التي لا تنطق بها الناس كلهم الآن ، ولعلها كانت حينئذ لغة واحدة مترادفة الأسماء على المسميات ثم صارت لغات كثيرة إذ توزعها بنوه بعد ذلك ، وهذا هو الأظهر عندنا والأقرب .

إلا إننا لا نقطع على هذا كما نقطع على أنه لابد من لغة واحدة وقف الله تعالى عليها ، ولكن هذا هو الأغلب عندنا نعني أن الله تعالى وقف على جميع هذه اللغات المنطوق بها ، ويتفاهمون بها إلى إحداث لغة أخرى وعظيم التعب في ذلك لغير معي ، ومثل هذا من الفصل لا يتفرغ له عاقل بوجه من الوجوه ، فإن وجد ذلك فمن فارغ فضول سيئ الاختيار مشتغل بما لا فائدة فيه عما يعينه ، وعما هو آكد عليه من رموز معادة ومصالح دنياه ولذاته

---

(1) الأحكام ص 32 .

وسائر العلوم النافعة[1].

ويرى الباحثون المحدثون رأيا آخر يخالفون فيه القدماء ، وهو عدم معرفة اللغة الأولى الأم التي تفرعت عنها اللغات العالمية ، لعدم وجود أدلة علمية وطول الفترة الزمنية ، ولا نستطيع تحديد اللغة الأولى من خلال اللغات المعاصرة أو اللغات القديمة التي وصلتنا نصوص منها ؛ لأن اللغة تتطور وتتأثر بالمجتمع والظروف المحيطة بها ، واللغات المعاصرة تعد تطورا عما سبقها من لغات تنتسب إليها .

وقد صرح غير واحد من المحدثين بأنهم لا يستطيعون معرفة اللغة الأولى الأم ، قال ماريو باي: « لا أحد يعرف متى أو أين أو على أي صورة ابتدأ الكلام الإنساني . على الرغم من وجود افتراضات كثيرة في الموضوع»[2] ولكنه في النهاية يسلم بأن البشرية لا تعيش دون لغة يتواصل بها: «إننا نعرف جيدًا أنه لا يوجد على سطح الأرض أي جماعة إنسانية – مهما قل حظها من الحضارة والمدنية – بدون لغة يتفاهمون بها ويعبرون بها عن أفكارهم[3].

وقد تنازعت إدعاء اللغة الأولى أمم كثيرة زعمت أن لغاتها أصل اللغات جميعها ومبتدأها ، وأنها أفضل اللغات ، وهذا مخالف لحقائق العلم الذي لم يسلم بشيء من ذلك ، وقد رأى المحققون من أهل العلم عدم جدوي بحث نشأة اللغة ، لأن بحثها لا طائل من ورائه غير الخلاف والجدال .

مكانة اللغة العربية بين اللغات

لقد شرف الله تعالى اللغة العربية وفضلها على سائر اللغات بأن جعلها لغة كتابه الكريم ولسانه في خطابه معهم ، وجعلها لغة التعبد في الصلاة ، وقد جاء القرآن الكريم موصوفا بها في أكثر من موضوع بأنه بلسان عربي مبين غير ذي عوج[4].

---

(1) الأحكام ص 32 .

(2) أسس علم اللغة ، مايو باي ، ترجمة أحمد مختار عمر . عالم الكتب ط 8 ، 1419هـ - 1998 ص38.

(3) نفسه ص38 ، 39 .

(4) قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: 103] ، و﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: 195] و ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2] و ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ

ومدح الله تعالى القرآن الكريم بالبيان والإفصاح وبحسن التفصيل والإيضاح بجودة الإفهام ، وحكمة الإبلاغ وسماه فرقانا ، وقال : ﴿ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾. قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: 133] أي: «نزل القرآن الكريم بشيرا ونذيرا بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: 103] . وقد نزلت هذه الآية عندما زعم المشركون أن النبي ﷺ يتلقى القرآن من بشر: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: 103] .

وقد كان الذي ادعوا أنه يعلمه فتى نصراني أعجمي لا يعرف من العربية إلا قليلا فلا يستطيع أن يقيم لسانا عربيًا صحيحًا ، فكيف يتلقى القرآن عنه أو يتعلمه منه؟! و القرآن الكريم بلسان عربي واضح فصيح ، وقد أعجزهم بيانه وفصاحته ، ولم يستطيعوا أن يأتوا بعشر سور من مثله[2].

وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: 193-195] . أي أنزله عليك وأوحاه إليك الوحي (جبريل عليه السلام) لتنذر به هؤلاء المعاندين ، وقد أنزله الله تعالى باللسان العربي الفصيح الكامل ليكون بينًا واضحًا ظاهرًا قاطعًا للعذر مقيمًا للحجة دليلاً على المحجة . وقوله تعالى: ﴿ الٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: 1-2] أي هذا الكتاب ، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء

حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: 37] . ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: 113] . ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر: 28] . و ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت: 3] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الشورى: 7] . و ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف: 3] . ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف: 12] .

(1) ابن كثير م 3/ 167 .

(2) قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: 13] .

المبهمة ويفسرها ويبينها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ ، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل ببشارة أشرف الملائكة[1] .

ولغة القرآن الكريم من أقوم اللغات وأدقها وأبلغها: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨ ﴾ [الزمر: 29] . أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا إعوجاج فيه ولا انحراف ، ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان[2] . وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [فصلت: 3] أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه (قرآنا عربيًا) أي في حال كونه قرآنا عربيا بينا واضحًا مفصلاً وألفاظه واضحة غير مشكلة ، لقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود: 1] أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه[3] وقال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢ ﴾ [الأحقاف: 12] أي ومن قبله التوراة التي جاء القرآن الكريم مصدقًا لها ،هو كتاب فصيح بين واضح[4] . واللسان في سباق الآية يعني اللغة: ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [النحل: 103] .

وقد جاء القرآن الكريم متبوعًا بوصف عربي مباشر أو لسان عربي ، أو حكم عربي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: 37] . أي حكمًا معربًا «أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا معربًا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب الواضح الجلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[5] ، والوصف بالعربية منكرة مدحا لها وتفخيمًا لشأنها .

---

(1) ابن كثير م 2/ 467 .

(2) نفسه م 4/ 53 .

(3) نفسه م 4/ 91 .

(4) ابن كثير م 4/ 157 .

(5) نفسه م2/ 519 .

وقد وصف القرآن الكريم بالعربية لما تتمتع به من الفصاحة والبلاغة والوضوح وغير ذلك من الصفات التي انفردت بها عن سائر اللغات ، قال الثعالبي: « ... ... والعربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين... ... . »[1].

وقال القلقشندي في فضلها: (أما فضلها فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «تعلموا اللحن والفرائض . فإنه من دينكم» . قال يزيد ابن هارون: «اللحن هو اللغة» ولإخفاء أنها أمتن اللغات ، وأوضحها بيانا ، وأذلقها لسانًا ، وأمدها رواقًا ، وأعذبها مذاقا ، ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله وخاتم أنبيائه وخيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته ، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[2].

وقد أحب علماء اللغة الأولى اللغة العربية لغة القرآن حبًا جمًا ، فرأوا أنها أفضل اللغات وأفصحها ، وأنها لسان أهل الجنة: «قال الشيخ زين الدين أبي يحيي في شرح المقدمة الجذرية في تعليقه على قول ابن الجزي أن العربية أفصح اللغات: «وهي لغة العرب التي نزل القرآن الكريم بها ، ولغة نبينا ﷺ ، ولغة أهل الجنة فيها لخبر« أحب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي» ، وأنزل القرآن بلغتهم[3].

---

(1) فقه اللغة ص5 .

(2) صبح الأعشي في صناعة الإنشاء جـ 1/ 134 .

(3) أخرجه الحاكم 4/ 87، وقال فيه الذهبي: الهيثم متروك ومعقل ضعيف وأخرجه العقيلي في الضعفاء، والحديث موضوع جاء في اللآلي المصنوعة جـ1/ 230، وميزان الاعتدال 5737 و علق الأستاذ عبد الله عمر البارودي على هذا الخبر فقال: «عزاه في فيض القدير إلى العقيلي في الضعفاء عن ابن عباس ، وإلى الطبراني عن أبي عباس أيضا وفيه عبد العزيز بن عمران متروك ، وإلى البيهقي في شعب الإيمان بلفظ «أحب العرب لثلاث: لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي» . الدقائق المحكمة في شرح المقدمة (شرح المقدمة الجزرية في التجويد) ، تأليف الشيخ زين الدين أبي يحيى زكريا الأنصاري (ت 926هـ) ضبط ومراجعة عبد الله عمر البارودي . دار الجنان ، لبنان ، ط 2/ 1416 هـ 1996 م ص 28 . وقد سبق تخريجه .

وجاء في أكثر من خبر أنها أصل اللغات ، وأنها لغة أهل الجنة ، قال سفيان الثوري: «لم ينزل وحي إلا بالعربية ، ثم ترجم كل نبي لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية» رواه ابن أبي حاتم[1].

وقد جاء في هذا روايات مختلفة لا ترقى إلى مستوى الصحة ، فمعظمها ضعيف أو موضوع ، ولم يرد نص صريح يخبرنا بشيء عن لسان الناس يوم القيامة ، ولا نقول فيه شيئًا لعدم وجود دليل نثق في صحته ، فهذا مما يتخطى علمنا وإدراكنا ، وليس في بحثه شيء من العلم . ولا نستطيع كذلك تحديد اللغة الأولى التي تحدثها آدم عليه السلام ، ولا نميل إلى رأي من الآراء التي حددت لغة بعينها ، فقد بحث علماء اللغة اللغات المعاصرة وبحثوا نشأتها الأولى ، فلم يتوصلوا إلى طفولة لغة من اللغات غير أنهم اكتشفوا أن هذه اللغات تفرعت عن لغات أخرى سابقة ، وعرفت كل مجموعة من اللغات المتشابهة باسم نسبت إليه ، وأطلق عليها العلماء اسم أسرة لغوية ، ولم يسلموا بما قيل إن لغة من اللغات هي أصل اللغات ؛ أو هذه اللغة هي التي تكلمها آدم عليه السلام .

وهذا الرأي يناقض نشأة اللغات المعاصرة وانقسامها ، فاللغات الحديثة التي تنتشر في أوربا مثلا مردها إلى لغة أم تنسب إليها وتفرعت عنها ، وقد كانت هذه اللغات الحديثة في بدء الأمر لهجات محلية تعيش في نطاق اللغة الأم المشتركة حتى كتبت لها الغلبة فاستقلت وانتشرت وغلبت اللغة الأم وحلت محلها ، وهذه اللغات ليست عنا ببعيدة . ومثال هذا لغات الفرع الروماني ، وهي لغات منحدرة عن اللاتينية ، وأهم هذه اللغات : الأسبانية . والبرتغالية ، والفرنسية ، والإيطالية ، والرومانية ، والقشتالية في أسبانيا .

ولغات الفرع الجرماني وأهمها: الإنجليزية ، والألمانية ، والهولندية ، واللغات الإسكندنافية (السويدية ، والدانمركية) ، وهي من الفرع الجرماني . وقد نهضت هذه اللغات نهضة عظيمة في ظل عصر النهضة الحديثة ، لأنها صارت لغات حضارة حديثة انتشرت بانتشارها .

---

(1) تفسير ابن كثير م3/ 348 .

وقد توصلت الدراسات الحديثة إلى أن اللغات: العربية ، والعبرية ، والسريانية ، والآشورية ، والحبشية ، وغيرها تنتمي جميعًا إلى أسرة لغوية واحدة أو لغة أم تعرف بين الباحثين بأسرة اللغات السامية مجازا ، وهذه الدراسات المحققة والتي كدت مما توصلت إليه بأدلة قطعية لا يشوبها ظن تبدد دعاوي القدماء أن لغة من اللغات التي نعرفها هي الأصل .

واللغة العربية التي تعد أطول اللغات المعاصرة عمرًا في الاستخدام ، تعد أقرب اللغات إلى اللغة الأم . فهي اللغة الوحيدة التي حافظت على بنيتها وكتب لها البقاء دون تحريف بفضل ظروفها التي عاشتها قبل الإسلام ، ثم زادها الله كرامة وعزة فاختارها لغة لكتابه الكريم ، فحفظت بحفظه ، ولا نستطيع بالرغم من هذا أن ندعي أنها لم يطرأ عليها تطور أو تغيير ، فقد مرت هذه اللغة بمراحل تطور في الخطاب اليومي ، فالعربية التي تحدث بها الجاهليون تختلف في كثير من مفرداتها عن العربية التي استخدمت في ظل الحضارة الإسلامية . وهي الأخرى تختلف عن العربية التي نتكلمها اليوم ، ولكن هناك وعاء واحد تصب فيه عبر العصور التي مرت بها ، وهي اللغة الفصحى التي اعتمدها العلماء أساسًا نقيس عليه عربيتنا المعاصرة .

وقد حفظت العربية بعناية ربها سبحانه وتعالى ، فحفظها في كتابه الكريم ثم عنى بها أهلها فليست هنالك لغة نالت من الرعاية والاهتمام والبحث مثلما نالت العربية ، وليست هنالك لغة تملك التراث الذي تملكه اللغة العربية .

ولكننا لا نستطيع أن نزعم أنها أم اللغات العالمية أو اللغة التي تكلمها آدم عليه السلام ، وإن قطعنا أنها من أقدم اللغات المعاصرة وأعز ثروة لفظية وتراثًا وأدبًا ، فقد شهد العلماء بذلك، ولكن ليست لدينا أدلة قطعية تخبرنا شيئًا عن اللغة الأولى ، والذي ثبت في النص القرآني أن الإنسان الأول كانت لديه لغة يتواصل بها، وأخبرنا كذلك أنه قد وقع اختلاف في اللغات في فترة مبكرة من حياة الإنسان ؛ لكنه لم يحدد اسم اللغة ، ولم يقدم لنا تفصيلا عنها ، وما نسب إلى آدم أو نوح أو غيرهما من الأنبياء الأولين من قول في القرآن لا يعني أنهم قالوا قولهم بلسانهم ، فقد نص القرآن الكريم على اختلاف الألسنة ، ونص كذلك على أن كل نبي أرسل بلغة قومه ليبين لهم ، قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا**

بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4].

والحديث الشريف: «**لم يبعث الله عز وجل نبيًا إلا بلغة قومه**» ، وهذا يعني أن النبيين الأولين تحدثوا لغات مختلفة هي لغات أقوامهم أو من بعثوا فيهم .فلا حجة لهذه المزاعم التي تدعى بقدم اللسان العربي حتى آدم عليه السلام أو غيره من الألسنة كالعبرية ، أو السريانية ، وهذا ليس معناه الإقلال من شأن العربية أو الحط من قدرها أو الطعن فيها ، فالله تعالى قد جعلها لغة كتابه ووصفه بأنه عربي في أكثر من موضع ،ويكفيها فخرًا أن حفظها وبقاءها ليس موكولاً إلى العرب الخزايا المنكسرين اليوم- بل إلى الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9].

وقد أنزله الله تعالى لسانًا عربيًا غير ذي عوج ولا تسمى ترجمته قرآنًا ولا يتعبد بغير نصه العربي ، وهذا فضل ما بعده فضل! ولسنا في حاجة إلى أن نلهث وراء ما ذكر في بعض الكتب القديمة التي لا تستند إلى بصيرة من علم ، ولم يصدقها نص قرآني أو حديث عن النبي ﷺ.

والعربية في إثبات فصاحتها وقوة بيانها ليست في حاجة إلى نص ضعيف أو موضوع أو تأويل نص صحيح بغير معناه ، ليقال إن العربية أفضل اللغات وأصلها وأبلغها وأفصحها ، ونتخرص التراهات ، لنضفي عليها هالة القداسة ، وكأن العربية في منعة من الفساد والضعف غافلين عما تواجه العربية من مشكلات معاصرة تهدد كيانها ، فقدردد بعض المحدثين بعض الأقوال الموضوعة ، وبعض ما قيل تعصبا للعربية قديما باكين على أطلال العربية غير مبالين بأزمتها المعاصرة ، فقد تركوا دراسة اللغة دراسة علمية تعتمد على بحث مستوياتها (الصوتية والصرفية ، والتركيبية ، والدلالية ، وتوظيف هذه المستويات توظيفا محكما في لغة الخطاب المعاصر يدعم مستوى اللغة ، ويرفع منه ، وما الفائدة العملية التي ترتجي من الحديث عن اللغة في الماضي زمن آدم أو لغة الناس يوم القيامة ، وهي الآن فريسة آفات اللحن والدخيل ، وغزو اللغات الأجنبية ، وأصبحت غريبة بين أهلها ومذمومة بين اللغات الأجنبية اللائي يحرصون على تعلمها ، ويرغبون عن لغتهم؟! .

وقد توصل واحد من علماء العرب قديما إلى نتيجة علمية واعية محايدة في بحث اللغات

لا تقوم على التعصب أو الهوى ، وهو العلامة الفذ ابن حزم الأندلسي أحد أئمة علماء الإسلام الأعلام فقد رأى أن دراسة اللغة دراسة موضوعية علمية تقوم على بحثها في ذاتها دون اعتبار غيرها من اللغات أو أن يعلن الباحث رأيه في اللغات الأخرى فيذمها ؛ لأنها ليست لغة قومه أو دينه أو دولته . وهذا ليس من العلم في شيء ، فقد قال ابن حزم الأندلسي فيمن فضل لغة على أخرى أو تعصب للغة دون أخرى: وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات ، وهذا لا معنى له ، لأن وجوه الفضل معروفة إنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة ، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان: 58] فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا غير ذلك!

وقد غلط في ذلك جالينوس ، فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع .

قال علي (ابن حزم) : وهذا جهل شديد ؛ لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها ، فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق . وأنكر ابن حزم رأي من فضل العربية: «وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات ، لأنه بها نزل كلام الله تعالى . قال علي: وهذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر: 24] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء: 196] . فبكل لغة نزل كلام الله تعالى ووحيه ، وقد أنزل التوراة والإنجيل ، والزابور . وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية ، وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية فتساوت اللغات في هذا تساويًا واحدًا .

وأما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء في النص والإجماع في ذلك إلا أنه لابد لهم من لغة يتكلمون بها ضرورة[1] . وهذا ما نميل إليه ، ونسلم به .

ونرى أن الميزة التي اختص الله تعالى بها العربية أن جعلها لغة كتابه العظيم ، لما تتمتع

---

(1) الأحكام ص33 .

به من أساليب متعددة وغزارة ألفاظها واتساع دلالتها وإيجازها . وهذا فضل ما بعده ولا قبله . فليست للعربية ميزة على سائر اللغات إلا بهذا الفضل ، لأن الله تعالى قد أنزل الكتب السابقة بلسان من أنزلت عليهم ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: 4] . فسمة البيان في كل لسان ، والغرض من إنزاله عليهم بلسانهم هو التبيين ، لأنه لو كان على غير لسانهم ما علموا ما فيه ، ولا أدركوا أسرار معانيه ، وهذا من حكمة الله تعالى في خلقه ورحمته بهم ، وكونه بلسانهم يحببهم فيه ويرغبهم في فهمه .

قال ابن كثير في تفسير الآية: «هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ، ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم كما روى الإمام أحمد حدثنا عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد عن أبي ذر قال: «قال رسول الله ﷺ : «لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه» ، وقوله: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: 4] أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم[1] . فالهدف من جعل الكتاب المنزل بلسان من أنزل فيهم إقامة الحجة عليهم بما جاء فيه فقد جاء بلسان يعرفونه واضحا مفهوما غير معجم (مبهم) .

وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، ليفهموه ويتبينوا ما فيه ، ويكتشفوا أسراره ، فقد جاء تبيانا لكل شيء ، ففصل لهم الدين تفصيلا ليقيم الله عليهم الحجة به .

والبيان: هو الكلام الذي يكشف حقيقة حال أو المنطق الفصيح الذي يحمل في طياته بلاغًا ، وهو أهم صفات البشر ، فقد وهبهم الله تعالى القدرة على الإفصاح عما في ضمائرهم بالقول والحركة والإشارة .

وقد زاد الإسلام العربية فضلاً ومكانة فوسع رقعتها وزادها مهابة ومحبة في قلوب المسلمين ، فأقبلوا يتعلمونها واتخذوها لسانا ، وكانت لغة حضارة ، فرغب فيها الناس:

---

(1) تفسير ابن كثير ، المكتبة التوفيقية جـ 2/ 523 .

«وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب ، فأقبلت الأمم إليها يتعلمونها[1] وانتشرت العربية في أطراف الأرض بانتشار الإسلام .

طفولة اللغة العربية

إن استخدام عبارة «طفولة اللغة العربية» في سياق قول بعض الباحثين عن نشأة اللغة العربية غير دقيق ، لأن هذه العبارة تعني أن العربية نشأت مستقلة أو أنها مرت بمرحلة طفولة ، وهي المرحلة البدائية ، وهذا الوجه لا يتسق مع البحث اللغوي الحديث الذي أكد أن العربية فرع من فروع لغة أم تفرعت عنها لغات أخرى مثل العبرية ، والسريانية والآرامية ، والأكادية ، والحبشية ...، وقد عرفت هذه اللغات باسم «الساميات»، وهي أسرة لغوية واحدة ، كما أكد البحث الحديث أن اللغة العربية أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأم وأقدمها لما يتوفر بها من ظواهر ترجع إلى أصل تلك اللغات ؛ لأنها عاشت داخل الصحراء ، ولم تتأثر بغيرها حتى دونت .

وإطلاق كلمة «طفولة» يمكن أن يقال تجوزا على أصل نشأة اللغة البشرية ؛ لأنها غير مسبوقة بلغة أخرى ولم تتفرع من غيرها . واللغة العربية ورثت خصائص اللغة الأم أو معظمها غير أنها لم تمر بمرحلة طفولة ، ولكن يمكن البحث عن مرحلة استقلالها عن اللغة الأم ومدى ارتباطها بها وما احتفظت به من ظواهرها ، وهو ما تقوم عليه الدراسات الحديثة .

والبحث عما يسمى بطفولة اللغة العربية لا طائل منه ؛ لأنه طفولة للغة انشقت عن غيرها أو تفرغت عنها وأثناء انشقاقها كانت اللغة فيها منطوقة غير مدونة ، فليس لدينا نصوص من هذه المرحلة ، ولكن يمكن بحث تاريخ اللغة ما أمكن ذلك ، ويمكن أيضًا بحث الخصائص الأولى التي ورثتها عن اللغة الأم ، وما تميزت به عنها ، واختصت به نفسها فجعلها لغة مستقلة عن اللغة الأم ، واتساع هذه المميزات عبر مراحل تاريخها . وكل الذين أجهدوا أنفسهم وراء البحث عن طفولة العربية لم يصلوا إلى شيء ، يقول الدكتور

---

(1) صبح الأعشي: صناعة الكتاب .

محمد خضر: «... فإننا نريد أن نعرف شيئًا ولو قليلا عن طفولة اللغة العربية ، وشيئًا ولو قليلاً كذلك عن نشأتها ونموها وتطورها إلى أن صارت لغة نموذجية أدبية نزل به القرن الكريم على النبي العربي محمد ﷺ »[1]. لأن ما وصل إلينا منها يمثل أقوى مراحلها في العصر الجاهلي . فقد تفرعت عن لغة أم مكتملة ولها خصائصها ، فالذي نعلمه ويتفق عليه علماء العربية أن أزهى عصور العربية وقمة مجدها كان في العصر الجاهلي ، وظلت العربية في تلك المكانة حتى بدأت الفتوحات الإسلامية ، فخرجت العربية من خدرها ، ولاكتها ألسنة غير عربية .

ويعلن الدكتور محمد خضر صراحة عن عجزه عن الوصول إلى شيء من طفولة العربية فيقول: «وفي الحق أننا في بحثنا عن طفولة اللغة العربية نجد أنفسنا في ظلام حالك ، فليس بين أيدينا نصوص لنا ترجع إلى عهودها الأولى ، وأقدم ما عندنا منها لا يجاوز القرن الثالث الميلادي ، وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة قبل المسيحية أو أنها أحدث من شقيقاتها الساميات ، بل إن الباحثين يؤكدون أن اللغة العربية المألوفة لنا ، قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر ما احتفظت به الساميات[2].

ما وصلنا من تراث أدبي ولغوي سبق الإسلام ، يؤكد أن اللغة العربية عاشت أرقى وأزهى عصور مجدها في الجاهلية ، فهذا التراث الجاهلي لا يمثل بدائية اللغة العربية وسذاجتها ، وإنما يعد النموذج الأعلى والأمثل للعربية الفصيحة ، وتعد عربية الجاهليين هي نموذج القياس الذي تقاس به صحة اللغة وتكال عليه صيغها في العصور التالية حتى الآن.

ولغات الأمم البدائية قد تمثل طفولة لغة ما أو سذاجتها في أمة من الأمم . ولكن الأعراب أو البدو من أبناء العربية كانوا يملكون زمام اللغة العليا ، وتقاس فصاحة المفوهين والبلغاء بفصاحتهم ، ويحتج بلغتهم ويقاس عليها ، وقد كان الأعراب هم أعرب العرب: وأفصحهم ، وأخذت عنهم اللغة ، ولم تؤخذ عن أهل المدن ممن خالطوا الأعجام ، فالعربية

---

(1) فقه اللغة ، دكتور محمد خضر ط 1401هـ ، 1981 ص25 .

(2) نفسه .

الفصيحة ظلت في أفواه الأعراب سكان البادية داخل الصحراء لا تشوبها شائبة حتى دوّن العرب لغتهم وأدبهم ، فنزل علماء العربية البادية وسجلوا ما سمعوه من الأعراب ، وروا عنهم ، واستقدم بعضهم الأعراب إلى المدن ليحتجوا بكلامهم ، ويتعلمون عنهم اللغة ، فالعربية التي عرفناها عن الجاهليين لا تمثل طفولتها بل شبابها القوي المتين .

وجاء في بعض الروايات أن أول من تكلم بلسان عربي مبين يعرب بن قحطان وقيل جرهم ، أخرج الحاكم في المستدرك ، وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن بريدة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ قال: بلسان جرهم[1] وجاء فيه أيضا أن «أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل عليه السلام»[2] .

وروى الحاكم في المستدرك وصححه البيهقي في شعب الإيمان من طريق سفيان الثوري عن جعفر عن محمد عن أبيه جابر: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 3] ثم قال: «أُلهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهامًا» .

ويروي أيضا أن النبي ﷺ قال: «أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام ، وهو ابن أربع عشرة سنة»[3] .

وهذا لا يعني أن إسماعيل عليه السلام أبو العرب جميعًا وأنه أول من لفظ بها ، والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل عليه السلام ، وهم عاد ، وثمود ، وطسم، وجديس ، وأميم ، وجرهم ، والعماليق ، وأمم آخرون ، لا يعلمهم إلا الله ، كانوا قبل الخليل عليه السلام ، وفي زمانه ، وجرهم هم الذين أصهر إليهم إسماعيل عليه السلام وعاش فيهم وتعلم منهم العربية في البيت الحرام ، فأما العرب المستعربة ، وهم عرب الحجاز فمن ذرّية إسماعيل عليه السلام . وقد قال أبو عمرو بن العلاء: العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايات جرهم . وكذلك يروى أن إسماعيل جاورهم ، وأصهر

---

(1) ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه عن أنس -رضي الله عنه- موقوفا . والمزهر جـ 1/ 32 .

(2) المزهر جـ 1/ 32 .

(3) رواه محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه . المزهر 1/ 32 .

إليهم ، ولكن العربية التي عناها محمد بن علي (بن الحسين راوي الحديث السابق) اللسان الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي ﷺ ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا[1] ، ونحن نميل إلى هذا الرأي ، لأنه يتفق مع ما جاء في كتب التاريخ وما ورد في الروايات ويقره المنطق ، فاللغة العربية كانت موجودة زمن إسماعيل عليه السلام ، وجاء في القرآن الكريم ذكر بعض العرب الأقحاح الذين أهلكهم الله تعالى مثل: عاد وثمود ، والمشهور بين علماء الأنساب أن أولاد إسماعيل من العرب هم قريش ، وذكروا معهم قبائل أخرى تعيش في الحجاز .

وقد نزل القرآن الكريم بلسان قريش وقد كان معروفًا في العرب ، وهذا يعني أن القرآن الكريم لم يكن فيه من لهجات العرب شيئًا ، فالقراءات القرآنية تمثل وجوه الأداء أو النطق العربي .

والنبي ﷺ من أفصح العرب ، وقد نزل القرآن الكريم بلسانه وهو لسانه قريش. عن عمر من الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ، مالك أفصحنا ، ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال: «كانت لغة إسماعيل قد درست ، فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها» . أخرجه ابن عساكر في تاريخه .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق يونس بن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ في يوم دجن : كيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها! قال: كيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها! قال : كيف ترون رحاها استدارات؟ قالوا: نعم ، ما أحسنها وأشد استدارتها ! قال : كيف ترون برقها ؟ أخفيًا أم وميضًا أم يشق شقًا ؟ قالوا : بل يشق شقا . فقال: الحياء . فقال رجل: يا رسول الله ، ما أفصحك ! ما رأينا الذي هو أعرب منك ! قال : حق لي ، فإنما أنزل القرآن

---

(1) المزهر 1/ 33 . وقد كان لسان حمير في زمن أبي العلاء مختلفا عن اللسان العربي الذي كان في الشمال . فقال أبو عمر: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا» .

بلساني، والله يقول: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ رواه ابن أبي حاتم[1] .

نشأة اللغة

بحث نشأة اللغة قديم في البحث اللغوي ، فقد أثار هذا الموضوع الباحثون الهنود ، فبحثوه ضمن قضايا اللغة التي بحثوها ، كما بحثه أيضًا علماء اليونان ، ومن طريف ما يذكر في هذا الموضوع أن العهد القديم تناول موضوع نشأة اللغة واختلافها في سفر التكوين وأثار هذا الموضوع اهتمام علماء المسلمين ، فدرسوه دراسة واعية مستفيدين في ذلك من الدراسات السابقة عليهم ، وقد درسوا هذا الموضوع في إطار ديني وعقلي ، وسوف نبين ذلك في موضعه .

وقد شغل هذا الموضوع الباحثين قديمًا وحديثًا ، وأثارت قضاياه جدلا بينهم ، وأرى أن الموضوع الأساسي ليس نشأة اللغة أو أصلها ، ولكن الأساس هو دراسة اللغة نفسها التي نتواصل بها ونوظفها في حياتنا ، وأن نعالج قضاياها ومشكلاتها ، ونعتني بها ، فبحث نشأة اللغة الأولى ووصفها لم يهتد فيه الباحثون إلى طائل أو رأي فصل لعدم كفاية الأدلة العلمية التي تقيم حقيقة ثابتة يعتد بها ، وكل ما ذكر في هذا الموضوع اجتهاد لا يصل إلى درجة اليقين المقطوع به .

وقد رأيت أن أعيد مناقشة هذه الموضوعات ، وأعرض بعض ما ذكر فيها ، ليكون القارئ والباحث على بينة مما ذكرت آنفا ، وأول هذه القضايا التي أتناولها قضية أصل اللغة أو كيف نشأت اللغة أو من أين للإنسان بها؟ ومتى عرفها ، وقد تباينت الآراء في هذا الموضوع وإليك أشهرها :

أولا - اللغة إلهام إلهي أو وحي أو توقيف

يرى أصحاب هذا الرأي أن اللغة إلهام من الله إلى آدم أو وحي هبط عليه ، فعلمه

---

(1) تفسير ابن كثير م3/ 348 المزهر 1/ 35 . الدجن: إلباس الغيم السماء . الباسقة : السحابة البيضاء الصافية . الحيا: (مقصور) الخصب والمطر ، ويمد الحياء . عرب: لم يلحن . وعرب لسانه عروبة إذا كان عربيًا فصيحًا .

النطق وأسماء الأشياء ، وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت **Heraclite** (ت 280 ق.م.) ونسبة هذا الرأي له ليست يقينية ؛ لأن الوحي يرتبط بالأديان السماوية ولهذه النظرية صدى في العهد القديم الذي أشار إلى أن الله تعالى علم آدم أسماء الأشياء ، وهو الذي قدر اختلاف اللغة ، وقد تبنى هذه النظرية بعض علماء المسلمين ، ومن أصحاب هذا الرأي أبو علي الفارسي ، قال ابن جني محدثا عن رأي أستاذه أبي علي: «قال لي يومًا: هي من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه: ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة: 31] » ، وقد ناقش ابن جني حجة أستاذه ورأي عدم حجيتها في هذا الموضوع: «وهذا لا يتناول موضوع الخلاف ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به»[1].

وأكثر علماء العربية ميلا إلى هذه النظرية ابن فارس (395هـ) ، وهو معاصر لأبي علي الفارسي ، وتلميذه بن جني[2] ، وقد قدم أدلته النقلية في ذلك ، ثم احتج بصحة رأيه بأدلة عقلية ، فقال: «أقول إن لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾ ، فكان ابن عباس يقول: « علمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار . وأشباه ذلك من الأمم وغيرها[3]. واستشهد بغيره على ما ذهب إليه ، ثم قال: «والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ثم احتجاجهم بأشعارهم . ولو كانت اللغة مواضعة اصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو

---

(1) الخصائص 1/ 51 .

(2) توفى أبو علي الفارسي 377هـ ، وابن جني 392 هـ ، وأحمد بن فارس 395 هـ ، والفترة التي عاش فيها هؤلاء كانت تعرف بالقرون الوسطى في أوربا أو عصر الظلام . والمرجح أن أصحاب هذا الرأي من المسلمين توصلوا إليه من ظاهر بعض النصوص والمرويات ، وذكره عن هيراكليت غير محقق ، بل أراه باطلاً ، لأن هذا الرأي يرتبط بالديانات السماوية ، وقد جاء ما يفيد هذا الرأي في العهد القديم في سفر التكوين .

(3) الصاحبي ص7 .

اصطلحنا على لغة اليوم ، ولا فرق»[1] . وليس ما ذكره ابن فارس بحجة في هذا الموضع ، لأن الاحتجاج يكون على صحة استخدام اللغة في أصل الوضع ، والشواهد تؤكد صحة استخدام اللفظ بمعناه الذي وضع له دون دلالة تخالف معناه ؛ لأننا قد نستخدم اللفظ في غير موضعه أو دون دلالته التي اصطلح عليها في أصل الوضع خطأ في الاستخدام .

وقد ذهب ابن فارس إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن الخط هو الآخر توقيف ، واستدل ببعض الآثار واستدل على ذلك ببعض الآيات التي ورد فيها ذكر القلم ، ونرجئ الحديث في هذا الموضع إلى موضوعه من هذا الكتاب فترقبه[2] .

ورأى بعض الأصوليين هذا الرأي ، فذهب الأشعري وأهل الظاهر وجماعة من الفقهاء إلى أن الله تعالى هو الذي وضع اللغة ، وعلمها آدم بالوحي أو الإلهام ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: 31 ،32] وهذا يدل على أن آدم والملائكة لا يعلمون إلا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق: 1 :5] .

وقالوا لم يبلغنا أن قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجتمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه . ولم يبلغنا عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به ، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم[3] .

---

(1) نفسه .

(2) ارجع إلى: الصاحبي لابن فارس ص 10 والمزهر للسيوطي ج2/ 341 وما بعدها . والآيات التي احتج بها ابن فارس: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ ﴾ [القلم: 1] وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق: 4] . وليست بحجة صريحة في توقيف الكتابة أو الوحي بها .

(3) لم يقبل الأستاذ مصطفى السقا الشواهد الدينية التي احتج بها الأصوليون وغيرهم ، قال: إن كثر ما استدل به أصحاب هذا المذهب أدلة دينية مع أن البحث نظري عقلي لا ديني ، فينبغي أن يستبعد منه الاستدلال بالآيات والأحاديث ونحوها «مجلة المعرفة ، عدد 3 ، السنة الأولى ، السعودية . ولا نقبل

وقد اعتنق هذا الرأي بعض رجال الدين من أهل الكتاب، وأشهرهم الأب الفرنسي لامي (ت 1771م) في العصور الوسطى . واستشهد على ذلك بما جاء في العهد القديم: «والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان ، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول»[1] .

وقد جاء في النص القرآني: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31]، ولم يرد فيه المراد بها . وهذان النصان ليسا بدليلين على أن اللغة توقيف أو وحي في عموم أمرها ، فهذا مما يختص به آدم دون الناس ، وقد ثبت بالدليل العقلي أن اللغات تتطور ويزداد فيها وتزداد ثروتها اللغوية بطول العهد بها وكثرة استخدامها ، وقد يحدث العكس ، فتموت اللغة أو تنقرض بانقراض متكلميها أو أن تغلبها لغة أخرى غازية فتحل محلها .

وهذا الاتجاه يصح من وجه ولا يصح من وجوه أخرى ، ووجه الصحة أن الله تعالى علم آدم اللغة ؛ لأنه الخلق الأول وليس له سابق يتلقى عنه ، فعلمه الله تعالى أسماء كل شيء في بيئته بوحي أو إلهام ، فآدم كان يتلقى من ربه سبحانه وتعالى ، أو أن الله تعالى وهبه القدرة على الكلام فتكلم بمشيئته سبحانه ، وخاطب آدم زوجه وأولاده بما تعلمه من ربه سبحانه والله أعلم . والذي لا يصح أن نزعم أننا تلقينا اللغة عن آبائنا توقيفا أو وحيًا . فإن ذرية آدم تعاقبت في نقل لغات الأولين وتوسعت فيها ، وغيرت وتأثرت لغاتها بعوامل خارجية واجتماعية ، فاختلف لسانهم الأول إلى لهجات ثم تطورت اللهجات إلى لغات مستقلة ،

هذا الرأي؛ لأن العلماء قديما وحديثا احتجوا بالقرآن الكريم والحديث الشريف في مجال اللغة، ويعدان مصدري احتجا ج فيها من الدرجة الأولى ، والآيات القرآنية والحديث يصح الاحتجاج بهما في كل مجالات المعرفة ؛ لأنهما بوحي من الله الذي أحاط بكل شيء علما ، وهما لا يتعارضان مع حقائق العلم. وهذا الاحتجاج مشروط بصحة مناسبة الشاهد لموضوع الاستشهاد على المعنى الذي أجمع عليه المفسرون دون تحريف أو تغيير .

(1) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثاني: الفقرتان 19 ، 20 ، ورأي هذا الرأي أيضا الفيلسوف دو بونالد Vicomte de Bonald في كتابه التشريع للقديم ، توفى 1840م بفرنسا . ارجع إلى نشأة اللغة عند الطفل . الدكتور عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر ص30، 31 .

فاللهجة تصبح لغة إذا تمكنت من الاستقلال عن قيد اللغة الأم ، ولا نسمي اللغات التي تتكلمها الأمم المختلفة وحيا أو توقيفا ، لأنها لو كانت هي اللغة نفسها لما اختلفت ولظلت لغة واحدة من لدن آدم حتى الآن .

ثانيا – اللغة اصطلاح وتواطؤ

يرى أصحاب هذا الرأي أن الإنسان هو الذي وضع اللغة وارتجلها ارتجالا، واصطلح عليها بالتواضع والاتفاق في التواصل اليومي ، وقد قام الإنسان بوضعها على مراحل ، وهذا مذهب أكثر أهل النظر من المتكلمين ومنهم المعتزلة ، وذكر ابن جني هذا عنهم ، وفسر ذلك على النحو التالي: «وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة ، قالوا ذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات ، فيضعون لكل واحد منها سمة ولفظا ، إذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره ، لبلوغ الغرض في إبانة حاله . بل يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدانؤه ، كالفاني ، وحال اجتمع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز ، وغير هذا مما هو جاز في الاستحالة والبعد مجراه ، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم ، فأومأوا إليه ، وقالوا إنسان إنسان إنسان ، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك ، فقالوا يد ، عين ، رأس ، قدم أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظ من هذا عرف معنيها ، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف[1] .

ثم بين ابن جني سبب تعدد التواضع في اللغات المختلفة أو اختلاف اللفظ في اللغات: «ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها ، فتقول الذي اسمه إنسان ، فيجعل مكانه «مرد» والذي اسمه «رأس» فيجعل مكانه «سر» وعلى هذا بقية الكلام . وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية ، فوقعت المواضعة عليها ، لجاز أن تنقل ، ويولد منها لغات كثيرة: من

---

(1) ارجع إلى الخصائص 1/ 53 ، 54 .

الرومية ، والزنجية ، وغيرهما» .

وأشار ابن جني إلى ما يستجد من مفردات جديدة تعبر عما ابتكر: «وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار ، والصانع ، والحائك ، والبناء ، وكذلك الملاح . قالوا: ولكن لابد لأولها من أن يكون متواضعا بالمشاهدة والإيماء»[1].

قد يفهم القارئ لأول مرة من قول ابن جني السابق أن الألفاظ اتفق عليها في الاستعمال ، كما يتفق أصحاب كل علم على مصطلحاتهم ، وأرباب كل مهنة على ما في أيديهم من المسميات ، وإطلاق الأسماء لا يكون على هذا الضبط والإحكام ، فالتواضع على المفردات يسير في إطاره الطبيعي دون قصد من الإنسان أو نية مبيتة ، فالبشر يتناقلون المفردات ، ويغيرون فيها دون قصد . وهذا سبب اختلاف دلالتها واختلاف لفظها أحيانا في لغة واحدة ، وقد يكون هذا الكم الكبير من المفردات اللغوية مولدة من كلمات سابقة ، وإعادة صوغها ، أو نحت كلمات جديدة (كلمة أو أكثر) للدلالة على معنى جديد يصطلح عليه ، أو النقل عن آخرين ، واستعارة مفرداتهم لما ليس له مسمى عندهم . وقال الآمدي: «إن البهشمية وجماعة من المتكلمين ذهبوا إلى أن ذلك من وضع أهل اللغات واصطلاحهم ، وإن واحدًا أو جماعة انبعثت داعيته أو داعيتهم إلى وضع هذه الألفاظ بإزاء معانيها ثم حصل تعريف الباقين بالإشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع ، وكما يعرف الأخرص ما في ضميره بالإشارة والتكرار مرة بعد مرة أخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ** ﴾ [إبراهيم: 4] وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف»[2].

وقد رد عليهم رافضو مذهبهم من المحدثين بأن يتجافى عن الواقع أن يجتمع حكيمان أو أكثر لوضع رمز أو كلمة لمعنى ، فهذا ضرب من الخيال أو الظن لا يغني من الحق شيئا ، والآية ليست بشاهد في هذا الموضع ؛ لأنها تشير إلى اختلاف الألسنة ولا تتعلق بأصل

---

(1) الخصائص ج1/ 54.

(2) الأحكام في أصول الأحكام ، أبو الحسن علي بن محمد الآمدي . ج1/ 106.

اللغة ، وقد غالى بعض المحدثين في الرد عليهم بأن رفضوا الاحتجاج بالنص الديني عامة في هذه الموضوعات قال بعضهم: «على أننا نقول ما قلناه آنفا إن الاستدلال بالنصوص الدينية في مقام البحث العلمي لا يجوز»[1]. والنص القرآني أصدق دليل في موضعه الذي يوافقه .

وقد تبنى هذه النظرية بعض فلاسفة العصور القديمة ، وأشهرهم الفيلسوف اليوناني ديموكريت **Deocrite** ، وهو من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد ، وأخذ به بعض فلاسفة العصر الحديث منهم الفيلسوف الإنجليزي آدم سميث **Adam Smith** وريد **Reid** ، ودجلد ستيورات **Duglad Stewart** .

وقد وجه الدكتور عبد الواجد وافي لهذه النظرية نقدا لاذعا ، فقد رأى أنها لا تستند إلى سند عقلي أو نقلي أو تاريخي ، وأنها تتعارض مع النواميس اللغوية التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، فهذه النظم لا ترتجل اللغة ارتجالا ولا تخلقها خلقا ، بل تتكون بالتدريج تلقائيا ، كما أن هذه النظرية تغفل العوامل التي دعت إلى ظهورها في شكل أصوات مرتبة ذات مقاطع متميزة الكلمات ، والكشف عن النواة الأولى لها وصورتها الصوتية الأولى لأصل الكلمات أو الأصوات الأولى التي عبر بها الإنسان عن نفسه ، وأسباب اختياره لها. ورأى الدكتور وافي أن هذه النظرية ليست جديرة بالمناقشة ؛ لأنها تقوم على التخمين والوهم والخيال ، ورأى أن ما ذكره ابن جني عن المواضعة من اجتماع أفراد على وضع بعض الكلمات مذهبا ساذجا غريبا يبعد عن جادة الصواب المعقول[2].

وهذا لا شك تطاول على آراء علماء أفذاذ اجتهدوا في مسألة علمية وساهموا فيها مثل غيرهم ، ولا ينبغي أن نسفه آراءهم أو نضع من شأنهم ، فنصفهم بأنهم من العصور

---

(1) بحث «اللغة والمجتمع الإنساني» أحمد عبد الرحيم السايح . مجلة اللسان العرب م7 ج1/ 199 .

(2) نشأة اللغة عند الطفل ص 32 ، 33 . وقد استخدم الدكتور وافي تعبيرا غير دقيق عن علماء المسلمين (أبي علي الفارسي ابن فارس ، وابن جني) ، وهو أنهم من علماء العصور الوسطى ، وهذا تعبير خاطئ في هذا السياق ، لأن تعبير مصطلح العصور الوسطى يشير إلى فترة الظلام والتخلف التي عاشتها أوربا تحت نير سلطة رجال الكنيسة ، وتبدأ من القرن الثالث عشر حتى السابع عشر ، هي أزهى عصور الحضارة في تاريخ الإسلام .

الوسطى تلميحًا إلى فترة الظلام والظلم التي عاشتها أوربا ، ولم يكن العصر الذي عاش فيه ابن جني (ت 392) عصر ظلام ، بل يعد أزهى عصور الدولة الإسلامية حضارة ، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن ابن جني كان من أنبغ علماء اللغة مطلقا ، وأكثرهم وعيا وفهما ، ويكفيه أنه ضرب بسهم في كثير من الموضوعات التي لم تختلف معه فيها المناهج البحثية الحديثة ، وقد توصل إلى كشف كثير من أسرار اللغة في زمن متقدم . ولا نتفق مع الدكتور وافي وغيره ممن رفضوا الاستدلال بالنص القرآني في موضوع نشأة اللغة بدعوى أنه نص ديني لا يحتج به في مجال العلم ، وأقول إن النص القرآني أصدق دليل علمي ، لأنه كلام رب العالمين ، وأحرى بهم أن يقولوا إن هذه النصوص لا يستدل بها في هذا الموضوع ، لأن موضوعها غير الموضوع الذي استشهد بها فيه ، فهذا ليس موضعها في الاستشهاد ؛ وهذا ما نطق به ابن جني أدبا مع كلام الله عز وجل ، فذكر أن معني الشواهد القرآنية لا يتناول الموضوع الذي احتج فيه بهذه الآيات .

ونرى خلاف ما ذهب إليه الدكتور وافي ، فالتواضع أو التواطؤ في اللغة أقرب إلى طبيعتها وتوظيفها في المجتمع ، ومن أدلة ذلك أن وسائل الإعلام تطرح كلمات جديدة بدلالات جديدة ، فيتلقاها المجتمع على لفظها ومعناها ويتواصل بها على هذا الوضع . وكثير من الكلمات الدخيلة يسلم المجتمع العربي بدلالاتها ويصطلح عليها ، وتصبح جزءا من مفردات خطابه اليومي .

وهذا الرأي يلائم ما نحن عليه في عصرنا ، فأرباب العلوم المختلفة ، قاموا بوضع مصطلحات حديثة مولدة ، وأسماء لكل مبتكر حديث ، وقد يكون الاسم والمصطلح لهما وجود سابق في اللغة ، مثل السيارة والقطار ، وقد يكون محدثا أو منحوتا أو معربا أو دخيلا ، والأصل في معنى المصطلح أو الاسم الاصطلاح أو التواطؤ عليه في الاستخدام .

وإن اجتماع العلماء المتخصصين على وضع لفظ أو مصطلح أورمز لشيء ليس خبالا أو ظنا ، فالعلوم الحديثة تبتكر مصطلحات حديثة يصطلح عليها لترمز بها إلى كل ما يستجد في الحضارة الحديثة ، وليس هذا بدعا قديما وحديثا ، ولكن الذي نأباه أن نقول إن الناس قديما اعتادوا أن يجتمعوا ليطلقوا أسماء لكل ما يرونه ، فالإنسان يسمى الشيء بأقرب شيء يشبهه

أو حركته أو لونه إن لم يسبق له معرفته أو يفترض له لفظا أو يبحث عن مسماه الحقيقي: ما هذا؟ ما اسمه؟ .

والاحتجاج بالنص القرآن والحديث الشريف يعد من أقوى الأدلة التي يحتج بها في مثل هذه الموضوعات شريطة أن يحتج بالنص في موضعه الصحيح دون لي للنص أو تحريف للمعنى ، والآية ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ** ﴾ التي احتج بها أصحاب رأي الاصطلاح غير مقبولة في هذا الموضع ، لأن معناها أو مرادها ليس في موضوع الاحتجاج ، ولا نقول مغالين إنه لا يجوز الاحتجاج بها في بحث علمي ، فأصحاب هذا الرأي جانبهم الصواب ، وشرط الاحتجاج بالحديث أن يكون صحيحا وفي موضعه من الاحتجاج . والله أعلم[1].

ثالثا – اللغة محاكاة الأصوات

يرى أصحاب هذا الرأي أن اللغة الإنسانية نشأت من محاكاة الأصوات التي نسمعها ، فالمتكلم يحاكي الصوت الذي يسمعه ما استطاع إليه سبيلا ، ويعبر عن هذا الصوت في تواصله مع الآخرين بمحاكاته محاكاة دقيقة يعلم منها المتلقي مراد المتكلم .

والأصوات التي يحاكيها أو يقلدها الإنسان ، ويرددها هي الأصوات التي يسمعها الإنسان في محيطه الاجتماعي والبيئي ، مثل:

الأصوات التي يصدرها الإنسان معبرًا عن انفعالاته كالبكاء ، والصراخ ، والتأوه ، والضحك .

أصوات مظاهرالطبيعة ، كخرير المياه ، وأصوات الكهوف ، والرياح ، والرعد ، والبرق .

أصوات الأحياء الأخرى التي يسمعها الإنسان مثل: أصوات الحيوانات: للقطط والكلاب والحيوانات المفترسة .

---

(1) رفض الأستاذ مصطفى الاحتجاج بالنص القرآني في موضوعات اللغة وتابعه فيه الشيخ أحمد عبد الرحيم السايح في بحثه عن اللغة والمجتمع الإنساني ، مجلة اللسان العربي. المغرب . م7ج8/ 93.

أصوات الأحداث والأفعال: كصوت كسر الزجاج والخذف (دش) ، وكصوت اصطدام سيارة بأخرى «طا» . وكصوت الضرب ، وكصوت القطع ، وغير ذلك .

وقد تطورت هذه الأصوات ، وارتقت في ظل المجتمع ، وتصرفت في الاستعمال . وتحاكي بعض الألفاظ معانيها أو ما تدل عليه ، ولكنها لا تشكل معظم اللغة ، لأنها تكون في مجال محاكاة الأصوات فقط ، ولا تطرد في كل المسميات. مثل: العطعطة: تتابع الأصوات في الحرب وغيرها ، والغطغطة: صوت غليان القدر وما أشبهه ، والحمحمة: أن يردد الفرس صوته ولا يصهل ، قال عنترة في وصف ما وقع بفرسه[1]:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

والتحمحم: صوت مقطع ليس بالصهيل . والحفحفة: حفيف جناحي الطائر ، والجرجرة: صوت جرع الماء في جوف الشارب ، والخرخرة: صوت ترديد النفس في الصدر. وصوت جري الماء في مضيق . الدردرة: حكاية صوت الماء في بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فسمعت له صوتا ، وكذلك صوت الحب عند اصطدامه بجسم . والغرغرة: صوت ترديد الماء في الحلق من غير مج ولا إساغة . والقرقرة: صوت الشراب في الحلق . والهرهرة: صوت حكاية زئير الأسد. والكهكهة: صوت ترديد البعير هديره . والقهقهة: حكاية استغراب الضحك . والوعوعة: صوت نباح الكلب إذا ردده. والوقوقة: اختلاط أصوات الطير . والوكوكة: هدير الحمام . والكركرة: الضحك . القرقرة: حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه . والوشوشة: حركة القوم ، وهمس بعضهم إلى بعض[2] .

ومثلها الهبهبة صوت نباح الكلب ، والنونوة صوت مواء القط . والذقذقة صوت العصافير ، وغير ذلك من محاكاة الأصوات . ومن طريف ما يذكر في هذا الموطن أن الطفل في مهد تعلمه اللغة يتعرف على الأشياء من خلال أصواتها ، ويسميها بأصواتها فهو يسمي الحمل «ماء» ، ويسمى الكلب «هَوْ» ، والسيارة «بيب» والحمار «حاه» ، وتلازمه هذه

---

(1) الديوان طبعة مكتبة الأسرة 2001م ص202 .

(2) ارجع إلى المزهر ج1/ 52 ، 53 ، وارجع إلى معاني هذه الكلمات في الجمهرة لابن دريد ، والقاموس المحيط للفيروز أبادي .

الأشياء حتى يتعرف على أسمائها من المحيط الذي يعيش فيه .

ولهذه النظرية جذور قديمة ، وقد تبناها بعض علماء العرب ، ونقل عنهم ابن جني رأيهم ، وفصله تفصيلا ، ورأى أن به جانبا وصوابا في بعض الألفاظ التي تحاكي معناها ، وتوهم بعض الباحثين أن ابن جني يميل إلى أن اللغة محاكاة للأصوات ، وقد قال ابن جني: «وقد ذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها ، إنما هو من الأصوات المسموعات . كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس . ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل»(1).

ومن يتفحص حديث ابن جني في هذا الموضوع يجده أنه قوي في نفسه اعتقاد أن اللغة توقيف من الله تعالى وأنها وحي ، وقد صرح ابن الطيب في شرح الاقتراح أن مذهب ابن جني في هذا المبحث التوقيف ، وهو ظاهر كلامه ، وهو بذلك يخالف رأي المعتزلة . وهو الجزم بأنها اصطلاح وتواضع . وهذا ما ذهب إليه بعض المحدثين . وقد تأملنا ما قاله مرارا وتبين لنا بعد طول نظر أن ابن جني لم يقطع برأي ؛ لأنه وقف متحيرا في نهاية الأمر ، وأعلن موقفه هذا صراحة ، فقد ذكر أنه كان يرى في باديء الأمر أنها توقيف من عند الله – وهذا مذهب ابن فارس ولكنه لم يعلن بطلان ما خالفه ، فقد صوب الرأي القائل أنها محاكاة المسموعات ، وقال فيه: «وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل» ، وهذا لا يعني أنه رأي جميع الأصوات محاكاة المسموعات ، ولكن هذا يقع في بعض مفردات المسموعات . فابن جني يعلن صراحة في بدء حديثه في هذا الموضوع أنه موضوع شائك ودعا إلى بحثه بحثا دقيقًا لعل الباحث يجد فيه أمرا يقطع الخلاف: «هذا موضع محوج إلى فضل تأمل».

وقد توصلنا إلى أن ابن جني لم يذهب مذهبا فيه ، وإنما امتدح بعض وجوه الرأي فيه عندما تبين له صدقها ، فقد ناقش الموضوع مناقشة علمية محايدة ، فذكر الآراء جميعها ولم يتعصب لمذهب ، ثم أعلن حيرته صراحة ، ولم يجزم برأي ، لعدم وجود دلائل كافية فقد

---

(1) الخصائص . طبعة المكتبة التوفيقية ج 1/ 56 .

نشأت اللغة في فترة مبكرة معاصرة لبدء الإنسان في الأرض ، ومرت بمراحل تطور عديدة ، ووصلت إلينا مكتملة ، وحملت في طياتها كل ما عبرت عنه في الواقع من أصوات مسموعات حاكتها ، وما عبرت عنه من خواطر وأفكار تداعت إلى ذهن الإنسان ، فاللغة ظاهرة إنسانية تأثرت بحياة الإنسان ومراحل تطوره ، وعبرت تعبيرًا دقيقًا عن كل ما يتعلق به ، ومن ثم صورت حياته تصويرا دقيقا ، فقد جسدت ما يشعر به الإنسان وحاكت الطبيعة من حوله .

واللغة في بعض جوانبها محاكاة لأصوات معلومة في الطبيعة ، وهذا الأمر يشكل بدائية اللغة ، والأمم البدائية تميل إلى تجسيد الأصوات التي تسمعها في محيطها ، فتحاكيها وتستدل عليها بأصواتها ، والأشياء التي لا تصدر صوتا تعبر عنها بالإشارة أو الحركة أو تجسيد هيئتها ، وهذا يعتمد على المشاهدة أو السماع .

وقد ذهب بعض العلماء الذين يقولون بنظرية التطور ، أن الإنسان كان يعبر عن نفسه أولا بالحركة والإشارة حتى تكاثرت الأشياء التي يريد التعبير عنها ، فحاكى أصوات هذه الأشياء ، فيشير إلى الغراب ، ويقول: غاق ، وإلى الحمار ويقول: حاء ، أو إلى الحصان ويقول: حم حم ، والكلب: هب هب ، ويعبر عن القطع بـ «قط» أو قص وسقوط الحجر بـ«طق» ، وقد لاحظ بعض قدماء اللغويين أن أسماء بعض الكائنات تحاكي أصواتها ، قال الخليل: «كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا ، فقالوا «صر» وتوهموا في صوت البازي تقطيعا ، فقالوا: «صرصر» .

ورأى بعض المحدثين أن الكلمة وضعت في أول أمرها على هجاء واحد في بدء الوضع حكاية أصوات أو أقفال ، ثم وضعت الحروف في فترة لاحقة ، فقد كان التفاهم في الطور الأول بأصوات متقطعة لا بجمل ثم تطورت الأصوات إلى كلمات ذات مقاطع متصلة فصارت تركيبا لفظيًا ، ثم طرأ عليها تطور آخر بالزيادة ، أو بالنقص والتصريف والنحت ، وتطورت اللغة بتطور المجتمع . فانتقلت من طور السذاجة والسهولة إلى طور التعقيد . والتنظيم .

وهذا المذهب يتفق في بعض جوانبه مع بعض مراحل النمو اللغوي:

لغات الأمم البدائية تميل إلى البساطة والسهولة ، فتراكيبها بسيطة وقصيرة ، ومفرداتها قليلة ومباشرة ، وقواعدها يسيرة غير بالغة التعقيد ، لكثرة اعتماد هذه الأمم على الحركات والإشارات والأصوات التي تغنيهم عن كم كبير من المفردات .

يوجد بهذه اللغات البدائية عدد كبير من الكلمات التي تحاكي الأصوات ، فهناك مناسبة بين أصوات هذه الكلمات وما تدل عليه .

كلمات هذه الأمم البدائية قصيرة ومباشرة ، فهي قليلة المقاطع ، وهي تشبه بذلك الكلمات المتقطعة التي وضعت على هجاء واحد محاكاة لأصوات الطبيعة وكلماتها تتكون من متحرك وساكن .

يمكن الموازنة بين تطور اللغة ونشأتها عند الطفل وتطور مراحل النطق عنده ، فالطفل في أول حديثه يلفظ أصواتا ساذجة مستطيلة لا تعني شيئا ، ثم يلفظ أصواتا متقطعة فينطق ما ، با ، يريد ماما ، بابا ، فيختار أخف الأصوات فينطقها . حتى تقوى عضلات اللسان لديه فينطق المقاطع المركبة ، ويلفظ الكلمات والجمل .

وقد أيد هذه النظرية كثير من علماء اللغة المحدثين ، وعلى رأسهم العلامة وتني **Whiteny**، وهو من علماء القرن الثامن عشر، وأشهر الباحثين في علم اللغة، وقد رأى الدكتور عبد الواحد وافي أنها أدنى نظريات هذان البحث إلى الصحة وأقربها إلى المعقول ، لما يراه فيها من اتفاق مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء، وقد لاحظنا أن الدكتور وافي متأثر بنظرية التطور والارتقاء الذي يطرأ على المجتمع، وهذه النظرية تتفق معها ، ولهذا حرص الدكتور وافي على إثبات صحتها بكل ما يستطيع تقديمه فيها، فاللغة ظاهرة اجتماعية وترتقي بارتقاء المجتمع وتنمو بنموه، وهذه النظرية في جوهرها ترى أن اللغة مرت بمراحل تطور وارتقاء حتى اكتملت ، في شكل مفردات وجمل، وما زالت تطور من نفسها مواكبة بذلك حركة المجتمع .

والحقيقة أن كل ما يلفظ به الإنسان ليس محاكاة للأصوات، لأننا لو تأملنا مفردات الحضارة الحديثة، فسوف نجدها تجديدا لأصوات قديمة أو اقتباس منها أو نحت أصوات جديدة من مفردات جديدة، فلهذه المفردات المولدة أو الجديدة المبتكرة رواسب قديمة ، وما

نتوهم أنه مبتكر ليس مبتكرا، لأن هذه المفردات لها صلة بما نتكلمه أو نسمعه أو نتلقاه من الحضارات الأخرى، فاللغات المتجاورة ولغات الحضارات تمد غيرها من اللغات بما تحتاج إليه من كلمات أو أسماء لأشياء مبتكرة، والحضارات التي تبتكر الجديد هي التي تصدر الألفاظ إلى الأمم التي تعيش عالة على حضارتها وتقتات من لغتها لتسد حاجتها اللغوية للأشياء التي استوردتها من غيرها، وهذه المفردات المستعارة يدخل عليها تعديل لتوافق طبيعة اللغة التي دخلت فيها وتتأثر بها في النطق والتصريف، فتصبح هذه الكلمات الدخيلة جزءا من هذه اللغة وتعالجها المعاجم ضمن مفرداتها .

فاللغات تحتوي على مفردات تحاكي ما تعبر عنه ، وتحتوي على رموز موضوعة لا تمت بصلة صوتية إلى ما ترمز إليه . وهذان النوعان يخضعان لمبدأ التعليم أو التحصيل والتلقي الذي ذكره الله تعالى في كتابه فيما سبق ذكره من آيات، وقوله تعالى: ﴿ **ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥** ﴾ [العلق: 1 : 5] .

وتعليم الله تعالى لا يعني التلقين والتدريب ، وإنما يعني القدرة عليه والاهتداء بالعقل. فالله تعالى لم يعلم الإنسان بالقلم ، وإنما هداه إلى ابتكاره ، فالإنسان في منظومة الحياة لا يخرج عن قدر الله تعالى ، فكل ما يبتكره الإنسان في حياته ، هو ما يبثه الله تعالى في روعه في زمن لينفع به عباده ، فالمبتكرات التي يبتكرها الإنسان في الأصل خاطر يرد على ذهنه فيجربه الإنسان فيصيبه ، وليست هذه الخواطر عبثًا إنما هي قدر مقدور ، وقد يكون علم تلقاه واستطاع أن يحل لغزه ويكشف سره .

رابعًا – اللغة منبعثة عن غريزة أو طبع للرغبة في التعبير

وهذه الغريزة قد زود بها أفراد النوع الإنسان ، ويستطيع بها التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به أو أكثر ، وقد تبنى هذه النظرية بعض المحدثين ، ومنهم ماكس مولر **Max Muller** الألماني (ت 1900م) ، والعلامة الفرنسي رينان **Renan** (ت1890م)، وقد نسبها بعض العلماء إلى علماء العصر الحديث ، وقد وجدت لها أصلاً عند الفيلسوف المسلم ابن سينا الذي رأى أن اللغة منبعثة عن الطبع الذي انبعث في تخصيص

معنى بصوت يعبر عنه ، وهو أليق به ، واستطرد قائلا :

«...فالإنسان لديه قوة حسية ترتسم فيها الأمور الخارجية ، وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثابتا، وهذه الأشياء الحسية التي ارتسمت، قد تنقلب عن هيئتها الحسية أو المحسوسة إلى التجريد المعنوي»[1].

وبعض العلماء يرى أن اللغة منبعثة عن جوانب نفسية كالرغبة في الرمز إلى الأشياء برموز يعرفها بها .

وبعضهم يرى أن اللغة منبعثة عن جوانب انفعالية كالرغبة في التعبير عن مظاهر الحزن والألم بالألفاظ دون الحركات والإشارات أو وصف المشاعر الداخلية .

وبعضهم يرى أن اللغة منبعثة لدوافع اجتماعية وهي الرغبة في التواصل ، وتحقيق المقاصد ، فابتكر المجتمع اللغة ليتواصل بها ويتميز بها عن غيره من المخلوقات .

وهذه الآراء في حقيقة الأمر تصف مظاهر اللغة وطبيعتها ووظائفها في المجتمع ، ولكنها ليست السبب الحقيقي في وجود اللغة ، فاللغة في حقيقة الأمر ملكة إنسانية أو ظاهرة إنسانية يتميز بها الإنسان عن الحيوان ، وهي من المواهب الخاصة التي وهبها الله تعالى للإنسان.

والرأي الذي نميل إليه أن الله تعالى وهب الإنسان القدرة على التعلم والتحصيل ، وخلق له جهازا صوتيا يعبر عما في نفسه قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31] . فآدم عرف اللغة تحصيلا أو تعلما ، فأعلمه أسماء الأشياء وتلقي دروسه الأولى في اللغة بوحي من الله تعالى ، وتواصل بها تعلمه مع زوجه وولده . وقال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ ﴾ [الرحمن: 1: 3] ، أي علمه المنطق الصحيح المعرب عما في الضمير[2].

فالإنسان معد خلقا وعقلا ونفسا للكلام الذي تميز به من سائر الحيوانات التي تصدر

---

(1) العبارة لابن سينا تحقيق محمد الحضري، الهيئة العامة للكتاب ص3 .

(2) تفسير النسفي، دار الكتاب العربي، لبنان جـ4/ 207 .

صوتا واحدا لا يتنوع ولا يتطور ولا يضيف إليه جديدا . وقدرة الإنسان على النطق تمكنه من محاكاة ما يسمعه من صوت ، فجهازه الصوتي ذو قدرة فائقة على إنتاج أصوات متعددة . وقدرة الإنسان العقلية تمكنه من ابتكار أصوات جديدة ورموز متعددة يرمز إلى الأشياء ويتخذها أسماء لها ، وطبيعة الإنسان النفسية تجعله غير ثابت المزاج فهو كائن حساس يتأثر بمحيطه ويتفاعل معه ، وحالاته النفسية المتعددة يعبر عنها بطرق مختلفة ، فالإنسان في حاجة إلى إخراج رغباته المكبوتة لفظا وفعلا ، ويعبر عنها لفظا وإشارة وحركة والحيوان لا يعبر عن نفسه إلا بالسلوك والصوت المحدود الذي يعبر عن السلم مع قرنائه أو الهرب معهم أو الشعور بخطر داهم يهرب منه . ولكنه لا يستطيع ابتكار رمز أو إشارة أو إنتاج لغة جديدة يطورها أو أن يضع لنفسه شفرات تخصه وحده لا يعلمها غيره ، والإنسان يستطيع أن يدرك مراد الحيوان من حركته وإشارته وصوته لطول عهده به وإلفه لصوت الحيوان وحركته ، ولكن الحيوان لا يستطيع فهم سلوك الإنسان غير المباشر ولا أسراره ولا يتبين شيئا من كلامه إلى ما تدرب عليه من بعض الأصوات التي لا يتذوق معناها ، وليست عنده إلا رمزًا لشيء تلقاه منه ، وليس ما يتدرب عليه الحيوان من أصوات لغة بل أصواتا فقط لا تشكل لغة مثل: «شيء» للحصان فيمشي ، «وحا» للحمار ، و«هش» للدجاج ، وهي لحمار قف ، ويقال للحصان «هس» فيقف ، ويقال للبقرة «عاه» فتمشي ، ومع كثرة المران يتعود الحيوان على رموز الأصوات ومقصودها ، فكل صوت يرتبط عنده بحركة يفعلها دون أن يدرك أسرارها أو غاياتها وهي تختلف باختلاف اللغة والثقافة والمكان ونوع الحيوان.

والقضية ليست قضية النشأة أو الأصل ، وإنما هي اللغة نفسها التي نتكلمها وتعبر عنا ، وهذا ما يعنينا منها ، وقد توصل ابن سينا إلى رأي سديد قديما ، فقد قال معرضا عن خلاف العلماء في أصل اللغة: «سواء كان اللفظ أمرا ملهما وموحي به علمه من عند الله تعالى معلم أول ، أو كان الطبع قد انبعث في تخصيص معني بصوت هو أليق به ، كما سميت القط قطا بصوتها ، أو كان قوم اجتمعوا فاصطلحوا اصطلاحا ، أو كان شيء من هذا قد سبق فاستحال يسيرا إلى غيره من حيث لم يشعر به ، أو كان بعض الألفاظ حصل على جهة والبعض الآخر على جهة أخرى ، فإنها إنما تدل بالتواطؤ ، أعني أنه ليس يلزم أحدا من

الناس أن يجعل لفظا من الألفاظ موقوفا على معنى من المعاني ولا طبيعة الناس تحملهم عليه ، بل قد وطأ تاليهم أولهم على ذلك وسالمه عليه ، بحيث لو توهمنا الأول اتفق له أن استعمل بدل ما استعمله لفظا آخر موروثا ، أو مخترعا اخترعه اختراعا ولقنه الثاني ، لكان حكم استعماله فيه كحكمه في هذا ، وحتى لو كان معلم أول علم الناس هذه الألفاظ . وإنما صارت إليه من عند الله تعالى وبوضع منه ، أو على وجه آخر ، كيف شئت ، لكان يجوز أن يكون الأمر في الدلالة بها بخلاف ما صار إليه لوضعه ، وكان الغناء هذا الغناء»[1].

وقد ذهب بعض العلماء على أن اللغة التي تكلمها آدم كانت توقيفا تعلمها بوحي أو بإلهام ، ولكن اللغات التي يتكلمها البشر اصطلاحية ، فكل أمة اصطلحت على لغتها ، «اللغات كلها اصطلاحية ، إذ التوقيف يثبت بقول الرسول ، ولا يفهم قوله دون ثبوت اللغة»[2].

وذهب ابن سينا إلى أن اللغة أيا كان أصلها أو مصدرها الأول وحيا أو إلهاما أو كانت طبعا في الإنسان ، فإنها في الاستخدام أو التواصل الاجتماعي تكون بالاصطلاح أو التواطؤ ، فالبشر يتواصلون بالكلمات التي يعلمها من يتواصلون معهم أو يعلمون مدلولها.

ومن يتأمل اللغة يجدها تحتمل الوجوه جميعا ، فبعض المفردات قد تكون اصطلاحا وبعضها قد يكون محاكاة ، وبعضها قد يكون مبعوثا عن الطبع أو من ابتكار المتكلم ، وقد يكون مبتدؤها وحيا أو إلهاما وهذا لا نعلمه، ولكن الذي لا نختلف فيه أننا نتفق على دلالات الكلمات التي تؤلف منها لغة خطابنا ، ونتفق كذلك على نظامها البنائي ، وتراكيب جملها ، فاللغة ظاهرة اجتماعية وتحمل صفات المجتمع الذي يتواصل بها .

إن اللغة التي نتكلمها قد اصطلحنا على دلالاتها واتفقنا عليها ، فالمجتمع يتفق على الكلمات التي يقيم منها تراكيب اللغة بالدلالة التي اصطلح عليها زمن التكلم أو الحديث .

وهذه الآراء المطروحة حول نشأة اللغة وأصلها قد أخفقت في بعض جوانبها ؛ لأنه في

---

(1) العبارة ، ابن سينا ص3 .

(2) المنخول في علم الأصول للإمام الغزالي ص3، والمزهر للسيوطي جـ1/ 22، 23 .

لغة خطابنا المعاصر قد تدخلت الحضارة الحديثة في ابتكار مفردات حديثة ليست من وضع القدماء ، وليست بوحي مباشر ، ووجهة نسبتها إلى الوحي أن الله تعالى قد وهب الإنسان القدرة على الابتكار فألهمه هذه المفردات ليعبر بها عما أحدثه وابتكره ، وتؤدي اللغة بذلك وظيفتها في الحياة ، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن: 1: 4] ، وقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: 5] . فاللغة ملكة إنسانية ألهمها الله تعالى آدم عليه السلام وتعلمها منه بنوه . ولم تتوقف اللغة عن الحركة والتطور، فما زال الإنسان يضيف إليها ويجددها ويطورها . فاللغة مرآة تصف حركة الإنسان على الأرض ، وتصور مراحل تطوره .